كتب ثقافية

# عارنا في الجزائر

جان بول سارتر

# عارنا فى الجزائر

بقلم

جان بول سارتر

# الجزائر فى ظل الاستعمار الفرنسى

إنى أرفع لكم صوت التحذير والنذير من وسائل الاستعمار الجديدة .. فالاستعماريون المحدثون يقسمون المستعمرين الى فئتين : فئة صالحة ، وأخرى طالحة شريرة ! !

وإن الفساد الذى استشرى فى المستعمرات إنما مرده إلى هذه الفئة الشريرة ، ولكى يضلوكم فى متاهات هذا الادعاء الكاذب الذى ذهبوا إليه تجدهم يتجولون بك بين ربوع الجزائر ، حيث تقف على بؤس الشعب وتراه رأى العين ، ثم يقصون عليك ألوان العذاب التى يتجرعها المسلمون على أيدى هؤلاء المستعمرين الأشرار حتى إذا فاض بك الأسى والحنق قالوا لك : « من أجل هذا ثار الجزائريون ؟ فقد أصبحوا لا يطيقون هذا الوضع الرجيم » فاذا جازت علينا خديعتهم هذه وانطلى علينا ضلالهم . خرجنا ونحن مقتنعون أولا بأن المشكلة الجزائرية مشكلة اقتصادية ، وأنه لابد من القيام بالإصلاحات لتوفير الخير للملايين . ثم هى بعد ذلك مشكلة اجتماعية ، فيجب مضاعفة المستشفيات والمدارس . وأخيراً فهى مشكلة نفسانية تخضع لنظرية « دومان » فى مركب النقص لدى طبقة العمال . فالجزائرى الجاهل الذى يرزح تحت نير الاضطهاد ، ويتضور جوعاً يشعر بمركب النقص تجاه أسياده . وأن معالجته وتهدئته تكمن فى مواجهة هذه العوامل الثلاثة والتغلب على مشكلاتها فإذا امتلأ بطنه والتحق بعمل ،

وقضى على أميته ، فانه لن يخجل بعد من أن يكون انساناً أو فى درجة من الإنسان الأوربى ؟ وبهذا وحده تتجدد الأخوة الفرنسية الإسلامية القديمة .

ولـكن يجب علينا — فى زعمهم — ألا نخلط ذلك الإصلاح بالسياسة فالسياسة أمر معنوى أو مجرد :

فماذا يجنى الجزائريون من وراء اشتراكهم فى الانتخـــابات وهم يتضورون جوعاً ؟

إن الذين يتحدثون عن الانتخابات الحرة والجمعية التأسيسية والاستقلال الجزائرى ليسوا إلا مثيرى القلاقل والفتن والشغب ، وهم الذين يعملون على عرقلة المساعى الطيبة لحل المشكلة الجزائرية .

تلك هى حجتهم وذلك منطقهم السقيم ، وقد أجاب عنها زعماء جبهة التحرير الوطنى بقولهم :

« إننا سنقاتل ونستميت فى القتال حتى وإن نـكن سعداء فى ظل الحراب الفرنسية » .

ولاشك أنهم على حق فى إجابتهم السديدة . بل يجب أن نذهب بعيداً أكثر مما ذهبوا : إن الانسان لا يملك إلا أن يكون شقيا فى ظل الحراب الفرنسية المشرعة . حقا إن غالبية الجزائريين يعيشون عيشة ضنكا ، وفى فقر مدقع ، ولـكن من الحق كذلك أن نؤمن بأن الإصلاحات الأساسية لا يمكن أن تتم على أيدى « المستعمرين الصالحين » ولا على يد فرنسا نفسها مادامت وجهتها هى السيادة على الجزائر ، وأنه لن ينهض بها إلا الشعب الجزائرى نفسه حين يظفر بحريته ، ويكون مستقلا استقلالا لا تشوبه شائبة .

ان الاستعمار لم يكن محض مصادفة . ولم يكن وليد آلاف المشروعات الفردية . وإنما هو نظام أقيم حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وبدأ يؤتى أكله حوالى عام ١٨٨٠ ، ودخل فى طور التصـــدع والانهيار فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو اليوم يرتد بالوبال على المستعمرين .

هذا ما أود أن تتعرفوا عليه فيما يتعلق بالجزائر . التى هى مع الأسف العميق أبلغ مثال وأبرزه للنظام الاستعمارى . أريد أن أوقفكم على قسوة هذا النظام الذى لابد أن ينتهى إلى هذه النهاية المفجعة .

وكيف أن أخلص النيات إذا ولدت وترعرعت فى داخل هذه الدوائر الجهنمية استحالت إلى فساد مجسم . . فليس هناك مستعمرون صالحون وآخرون طالحون ؟ بل هناك مستعمرون فحسب .. ونحن اذا ماعرفنا ذلك حق المعرفة أدركنا من فورنا لماذا كان الجزائريون على حق فى هجومهم على بناء هذا النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، وكيف أن تحريرهم بل تحرير فرنسا ذاتها لن يتحقق إلا إذا قضى على الاستعمار قضاء مبرماً .

ان هـــذا النظام لم يكن تلقائيا عفويا فالحق أن « ملكية يوليو » و « الجمهورية الثانية » لم تتوصلا إلى إدراك ماينبغى عمله فى الجزائر المحتـــلة .

ولقد كانت هنـــاك فـكرة بتحويلها إلى مستعمرة لسكنى الفرنسيين الفائضين ، وكان « بوجو » Leroy-Beaulieu يؤمن ( بطريقة الاستعمار الرومانى ، وعلى هذا الأساس منح الجنود العاملون فى الجيش الأفريقى مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ولـكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع .

لقد كانت بغيتهم أن يدفعوا الى افريقية الأوربيين الفائضين من اجراء فرنسا واسبانيا المتسكعين ، فأقاموا لهؤلاء الرعاع بضع قرى حول مدن الجزائر وقسطنطينة ووهران ، ولكن الأوبئة مالبثت أن فتكت بأعمهم الأغلب .

ثم حاولوا بعد يونية عام ١٨٤٨ أن يدفعوا الى تلك البلاد موجة أخرى من العمال العاطلين الذين كانوا مثار اقلاق لقوات الأمن فى فرنسا .

وتقدر هذه الموجة بعشرين ألفاً ، ولكن الكوليرا فتكت بأغلبهم وعاد الناجون من الوباء الى فرنسا ثانية .

وهذا الذى حدث أدى الى أرجحة الخطط الاستعمارية ثم استقرت بعض الشىء فى عهد ( الأمبراطورية الثانية ) بفضل قيام الصناعة وازدهار التجارة.. فإذا الشركات الاحتكارية الاستعمارية الكبرى تقوم فى فترات متقاربة .

ففى عام ١٨٦٣ أنشئت شركة استعمارية للتسليف العقارى ، ومصرف وفى عام ١٨٦٥ أنشئت شركة تسليف مرسيلية،وشركة معادن حديدية فى ( موكتا ) ، وشركة عامة لسفن النقل البخارية .

وفى هذه الفترة أصبحت الرأسمالية والأمبريالية متلازمتين .

وقد نصب جول فيرى Jules Ferry نفسه ليكون الناطق بلسان هذا النوع الجديد من الاستعمار ، فقال :

( إن فرنسا التى نقلت جانباً كبيراً من رءوس الأموال فيها واستثمرتها فى الخارج ، عليها أن تنظر الى المسألة الاستعمارية من هذه الزاوية .

إنها قضية الأسواق ، بالنسبة لبلاد كبلادنا ، فهى مضطرة بدافع من طبيعتها

وصناعاتها إلى تصدير كميات وفيرة عظيمة .. فإذا وجدت السيادة السياسية وجدت سيادة المنتجات أى السيادة الاقتصادية ) فكان جول فيرى الركن الركين للجمهورية الثالثة . أول من عرف الاستعمار لا لينين ، ووجهة نظره تتفق إتفاقا تاما مع المتمردين فى عام ١٩٥٦ : فهو ينادى ( بالعمل السياسى أولا ) .

إنه يرى ( أولا ) القضاء على كل مقاومة وكل إرهاب .. ثم يقام النظام الاقتصادى بعد ذلك .

وما القضية بعد ؟ -

هل يجب إقامة صناعات فى البلاد المحتلة ؟

كلا : إن رءوس الأموال التى تستثمرها فرنسا لا يمكن أن توظف فى بلاد متخلفة إقتصاديا ، مشكوك فى مقدرتها وإمكانياتها ، وسيطول الزمن حتى تؤتى ثمارها ، ذلك أنه يجب إعداد كل شىء وتجهيزه من جديد وعلى فرض أن هذا ممكن التحقيق ، فما جدوى خلق منافسة مصطنعة لانتاج فرنسا نفسها ؟ .

إن ( فيرى ) كان واضحاً جداً فرءوس الأموال الجديدة لن تخرج من نطاق فرنسا ، وإنما هى ستستثمر فى الصناعات الجديدة التى تصدر كل منتوجها إلى البلدان المستعمرة .

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الغرض إقامة الاتحاد الجمركى ( ١٨٨٤م ) وما يزال هذا الاتحاد قائماً حتى الآن .

ويؤمن هذا الاتحاد أو الحاجز الجمركى احتكار السوق الجزائرية للصناعة الفرنسية التى يعرقل انتشارها فى السوق العالمية الارتفاع الفاحش لأسعارها .

ولكن لمن تنوى هذه المصانع بيع منتجاتها ؟ ألّلجزائريين ؟

هذا أمر مستحيل : فمن أين لهم القدرة الشرائية ؟ إن هذه الخطة الاستعمارية ينبغى أن يقابلها خلق قدرة شرائية للمستعمرات ، والمستعمرون طبعاً هم الذين سيفيدون من كل الطيبات وبكل الأرباح والذين سيحولون إلى مشترين فى المستقبل . والواقع أن المستعمر هو أولا وقبل كل شىء مشتر اصطناعى ، خلقته فيما وراء البحار الرأسمالية التى تبحث لها عن أسواق جديدة .

وقد كان « بيرعوف » (Peyerimhoff) منذ عام ١٩٠٠ يؤكد هذه النقطة بالذات فى حديثه عن الاستعمار « الرسمى » فيقول :

« إن المستعمر قد أصاب ثروته من الحكومة ، إما عن طريق الهبة ، أو عن طريق هذه الامتيازات الهائلة التى تمنح له . وقد أقدمت الحكومة على القيام بتضحيات ضخمة من أجل المصالح الفردية كان لا يمكن أن تبذلها فى بلاد مستثمرة استثماراً كلياً » .

وهنا يتجلى بوضوح الجانب الثانى من البناء الاستعمارى :

إن على المستعمر أن يكون بائعاً لكى يكون مشترياً . فلمن سيبيع ؟ إنه سيبيع للمستوطنين الفرنسيين . وماذا يبيع من غير صناعة ؟ إنه سيبيع لهم منتجات غذائية ومواد أوليـــة . وهكذا ينهض النظام الاستعمارى تحت رعاية الوزير « فيرى » والمفكر النظرى « لوروى بوليو » Leroy-Bealieu وما التضحيات التى تقدمها الدولة للمستعمر ، هــذا الإنسان الذى ترضى عنه الآلهة ويحبه المصدرون ؟ إن الجواب يسير وهو أن تضحى له بممتلكات المسلمين ، وتقدمها له قرباناً .

فقد اتفق أن كانت المنتجات الطبيعية فى البلد المستعمر مما ينبت على الأرض ، وهـــذه الأرض تخص « سكان البلاد الأصليين » . ففى بعض المقاطعات القليلة السكان ، ذات المساحات غير المزروعة ، تـكون السرقة أقل ظهوراً : فإن الذى يرى هو الاحتلال العسكرى ؛ والعمل الإجبارى . أما فى الجزائر فإن جميع الأراضى كانت مفلوحة قبل وصول القوات الفرنسية وهذا يعني أن ما يزعمونه من قيامهم « بحرث » الأراضى وزرعها قد قام على عملية اغتصـاب من السكان استمرت طوال قرن : إن تاريخ الجزائر هو العمل على زيادة الأملاك العقارية الأوربية تدريجياً على حساب الأملاك الجزائرية .

وقد كانت جميع السبل سهلة ميسرة .

ففى أول الأمر كانوا ينتهزون أدنى إثارة من مقاومة لمصادرة الأراضى أو الحجز عليها .

وكان « بوجو » يقول « لايعنينا فى شيء أن تكون الأرض الطيبة لهذا الإنسان أو ذاك » وقد أدت لهم ثورة ١٨٧١ أجل الخدمات : فلقد سلبت مئات الألوف من الأفدنة من المغلوبين على أمرهم ولم يكتف الغاصبون بهذا بل أردنا نحن الفرنسيين أن نقدم للمسلمين هدية جميلة : أصدرنا لهم قانوننا المدنى . ولـكن مامرد هـذا الـكرم العظيم ؟ مرده أن الملـكية القبلية هى غالبا ملـكية جماعية ؛ فأرادوا تفتيتها ليتاح للتجار شراءها جزءاً جزءاً .

ففى عام ١٨٧٣ كلف رجال التحقيق بتحويل الملـكيات الـكبيرة إلى أخرى صغيرة توزع على أفراد القبيلة ؛ وكان هؤلاء المحققون يقومون بتوزيع الأنصبة على المستحقين . وكان بعضها خيالياً ؛ فقد اكتشف أحد

المحققين فى دوائر «حرار» أن ثمانية هكتارات يمتلكها خمسة وخمسون على المشاع ، فقام برشوة أحد هؤلاء الشركاء ليطالب بالتقسيم .

فما أن فعل حتى دخل التقسيم فى قيود من الاجراءات الفرنسية المعقدة الطويلة انتهت بجميع الشركاء إلى الإفلاس وبهذه الطريقة القائمة على الاحتيال استطاع تجار الأملاك الأوربيين شراء أراضيهم لقاء لقمة خبز .

حقيقة وجدنا فى مناطقنا فلاحين ممن أفقرهم تركيز الأراضى فى يد واحدة أو احتكار التصنيع فباعوا حقولهم والتحقوا بالعمل فى المدن . فإذا عمدنا فى بلادنا إلى التوزيع العادل للأرض فلا يمكن أن نقول إن هذا العمل ينطوى على السرقة .

أما هنا فى الجزائر فقد فرض قانون أجنبى على المسلمين بدافع السلب والنهب . فمن المعروف أن هذا القانون لا يمكن أن يطبق عليهم ، وليس له من أثر إلا هدم البناء الداخلى للمجتمع الجزائرى .

وقد استمر هذا الإجراء فى القرن العشرين تحت ستار كونه قانونا اقتصادياً اقتضته ضرورة ملحة . وما كان الأمر ليصبح كذلك لو أن الدولة الفرنسية لم تخلق بصورة مصطنعة ظروف الحرية الرأسمالية فى بلد زراعى إقطاعى ، ومع ذلك فقد امتدح بعض الخطباء فى مجلسنا النيابى فرض قانوننا فرضا إجبارياً على الجزائر ، ووصف ذلك بأنه من مآثر المدنية الفرنسية .

وهاهى ذى نتائج عملية الاغتصاب :

فى عام ١٨٥٠ كانت أملاك المستعمرين ١١٥,٠٠٠ هكتار . وفى عام ١٩٠٠ ارتفعت الى ١,٦٠٠,٠٠٠ وفى عام ١٩٥٠ زادت إلى ٢,٧٠٣,٠٠٠ هكتار .

وإذن فإن ۰۰۰ر۷۰۳ر۱ هكتار هى اليوم للملاك الأوروبيين ، وتملك الدولة الفرنسية ١١ مليون هكتار تحت اسم الأراضى الأميرية .

أما الجزائريون فقد ترك لهم سبعة ملايين هكتار فحسب أى أنه فى خلال قرن واحد سلب منهم ثلث أرضهم . ولكن قانون التجمع قد أضر بعض الضرر بمصالح المستعمرين الصغار ، فهناك اليوم ستة آلاف مالك يزيد دخلهم من إنتاجهم الزراعى عن اثنى عشر مليون فرنك وبعضهم يبلغ المليار . وعلى ذلك فالنظام الاستعمارى قد حقق أهدافه .

فالدولة الفرنسية تقطع الأرض العربية للمستعمرين لتكون لهم قدرة شرائية تمكنهم من الإقبال على زيادة شراء المصنوعات الفرنسية على حين يبيع المستعمرون للأسواق الفرنسية محصولات الأرض المسلوبة ، وبهذا عزز النظام الاستعمارى ، واكتملت حلقاته ، وعلينا أن نتابعه فى كل مراحله حتى نرى قسوته وجبروته فى وضوح.

١ــ الغرض من «فرنسة» الملكية الزراعية وتجزئتها هو تحطيم المجتمع القبلى القديم من غير أن يحل محله بديل آخر .

وقد شجع هذا التحطيم لأنه أولا كان يقتل قوى المقاومة ويستبدل بالقوى الجماعية وهن الأفراد ، ولأنه بعد ذلك كان يعمل على إيجاد يد عاملة « على الأقل مادامت الحراثة لم تصنع » .

وهذه اليد العاملة وحدها تقوم بالتعويض عن ازدياد نفقات النقل والمحافظة على أرباح المؤسسات الاستعمارية تجاه اقتصاديات فرنسا حين تنخفض تكاليف انتاجها .

وهكذا حول الاستعمار الشعب الجزائرى إلى يد عاملة زراعية ضخمة

حتى قال بعضهم عن جزائريي اليوم أنهم يشبهون جزائريي ١٨٣٠ ، فهم يفلحون الأرض نفسها ، ولئن يكن هناك فارق بينهما فهو أن الجزائريين اليوم أجراء فيها وليسوا ملاكا لها .

٢ــ لو لم تكن السرقة من النوع الاستعماري المتعمد لكان في الإمكان على الأقل أن يتيح الإنتاج الزراعي المصنع أن للجزائريين شراء نتاج أرضهم بأنسب الأسعار ، ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا عملاء للمستعمرين .

إن على المستعمر أن يقوم بالتصدير ليستطيع دفع ثمن مايستورده : إنه ينتج للسوق الفرنسية . وعلى هذا ــ يدفعه منطق النظام الاستعماري الى أن يضحى بمطالب الجزائريين من أجل إتراف الفرنسيين .

لقد زادت الأرض المنتزعة كرما بين ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ بمقدار ١٧٣,٠٠٠ هكتار أخذ أكثر من نصفها من المسلمين ــ ومعروف أن المسلمين لا يتعاطون الخمور ، وإنما كانوا يزرعون هذه الأراضي المبتزة منهم حبوبا للسوق الجزائرية . وإذن فليست الأرض هي التي تنتزع منهم الآن فحسب ، وإنما يحرم الشعب الجزائري من غذائه الرئيسي حين تزرع أرضه بالكروم ، وهكذا يحول نصف مليون هكتار ، مقتطعة من أجود الأراضي ومخصصة كلها لزراعة العنب إلى أرض لاتغل شيئا للجمهرة الشعبية الجزائرية .

وماذا نقول عن الحضيات والموالح الموضوعة في جميع مجال بقالة المسلمين أتعتقدون أن الفلاحين يأكلون برتقالا بعد فراغهم من طعامهم ؟

مما تقدم ، نجد أن انتاج الحبوب يزحف عاماً بعد عام نحو الجنوب الصحراوي .

وليس من شك فى أنه سيوجد من يبررون هذا الوضع فيقولون إن هذه مكرمة من مكارم فرنسا وأفضالها ! !

ومعنى هذا أن التعمير واستصلاح الأراضى يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن الرى قد استحدث فى البقاع المجدبة الصحراوية .

وهذه الأكاذيب قد تنطلى على المواطنين السذج القاطنين فى فرنسا أما الفلاح الجزائرى فيعلم علم اليقين أن الجنوب الصحراوى لا يزال محروماً من الرى ، وأنه أرغم على أن يعيش فيه لأن فرنسا صاحبة اليد العليا البيضاء قد طردته من الشمال ، وسلبته أرضه الصالحة فى المروج الخضر حول المدن .

وكانت نتيجة هذا الوضع السىء . أن زراعة الحبوب ظلت على ما هى عليه منذ سبعين عاماً مع أن سكان الجزائر قد بلغو ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه من قبل ، ولئن قيل إن ازدياد عدد السكان هو إحدى حسنات فرنسا فنذكر أن أشد الشعوب بؤساً هى أكثرها ذرية . فهل ترانا سنطلب من الجزائريين أن يقدموا لبلادنا الشكر لأنها أتاحت لأبنائهم أن يولدوا فى جحيم العوز والفاقة ، ويعيشوا عبيداً ، ويقضون نحبهم جياعا ؟ أما الذين يشكون فى هـذه الحقيقة الدامغة ، فإليهم الأرقام من واقع الاحصاءات الرسمية :

فى عام ۱۸۷۱ : كان نصيب كل فرد خمسة قناطير من الحبوب .

وفى عام ۱۹۰۱ : أربعة قناطير .

وفى عام ١٩٤٠ : قنطارين ونصف .

وفى عام ١٩٤٥ : قنطارين .

وفى نفس الوقت ، كان من جراء تضييق الملكيات الفردية إلغاء طرق المسير وحقوق المرور .

وفى الجنوب الصحراوى حيث جمعوا فيه القائمين على تربية الماشية من المسلمين فقد ظلت مواشيهم على حالها من الهزال والقلة .

أما فى الشمال فلا أثر لها ، وقد كان فى الجزائر قبل عام ١٩١٤ تسعة ملايين رأس من الماشية . أما فى عام ١٩٥٠ ، فلم يكن لديها أكثر من أربعة ملايين .

أما الإنتاج الزراعى اليوم فهو كما يلى بالأرقام :

يغل المسلمون ما قيمة ٤٧ ملياراً من الفرنكات .

والأوروبيون ما قيمته ٩١ ملياراً .

أى أن تسعة ملايين نسمة تقدم ثلث الإنتاج الزراعى ، وهذا الثلث هو المحدد لهم للاستهلاك ، أما بقية المحصول فيصدر الى فرنسا . واذن فعليهم بآلاتهم البدائية وأراضيهم المجدبة،واجب تغذية أنفسهم وإلا هلكوا ويجب أن يستخلص من حصة المسلمين — بعد أن حدد استهلاك الحبوب بمعدل قنطارين للشخص — تسعة وعشرون مليار فرنك للاستهلاك الذاتى وهذا يعنى فى ميزانيات الأسر عجز معظم العائلات عن الوفاء بحاجاتها ومطالبها فالغذاء يستنفد كل أموالهم فلا يبقى منها شىء للاتفاق على الكساء والسكنى وشراء الحبوب والآلات .

والسبب الوحيد فى هذا الفقر أن سياسة الاستعمار الزراعية البراقة قد أضحت بمثابة قرحة فى جسم البلاد ، وأنها تمتص كل شىء وتأتى عليه .

٣ — يؤدى تجميع الأراضى فى أيد واحدة الى تصنيع الزراعة ولا شك فى أن فرنسا سعيدة ببيع جراراتها الى المستعمرين وبينما قلت قدرة

المسلم الإنتاجية لتوطينه فى أرض ضعيفة بنسبة الخمس ازدادت القدرة الشرائية لدى المستعمرين لمصلحتهم وحدهم .

فالأراضى التى تنتج العنب وتتراوح مساحتها بين هكتار وثلاثة ويستحيل فيها استخدام الأساليب الحديثة تعطى ٤٤ هكتوليترا ، فى كل هكتار . أما أراضى العنب التى تزيد مساحتها على ٦٠٠ هكتار فإنها تعطى ٦٠ هكتوليترا فى الهكتار وواضح أن ميكنة الآلات الزراعية يؤدى الى البطالة وذلك بفعل الآلة التى تحل محل العمال الزراعيين .

ولو كانت الجزائر تملك صناعة لكان ذلك ذا أهمية كبرى ، ولكن النظام الاستعمارى يسلبها هذا الحق .

فإذا العاطلون يتدفقون نحو المدن حيث يعملون يوماً أو بعض يوم فى أعمال التنظيم والنظافة ثم لا يجدون ما يعملون بعد ذلك ؟ وعاماً بعد آخر تتزايد أعدادهم ويمثلون طبقة الأجراء المستضعفة .

ففى عام ١٩٥٣ لم يكن هناك إلا ١٤٣٫٠٠٠ أجير مسجلين فى القوائم الرسمية على أنهم عملوا أكثر من تسعين يوما فى العام، أى بمعدل يوم لكل أربعة أيام .

وهذه نتائج الاستعمار البشعة التى لا مفر منها . فهم يبدأون باحتلال البلاد ، ثم سلب الأرض من ملاكها واستغلالهم بأزهد الأجور التى لا تمسك الرمق على أن هذه اليد العاملة الرخيصة تصبح مع التصنيع ، أغلى مما ينبغى! وهكذا ينتهى الأمر بانتزاع حق العمل من السكان الأصليين وهو حقهم الطبيعى ولا يجد الجزائرى ، وهو فى بيته ويقيم فى أرضه، وفى وطنه الخصب الممرع إلا أن يسقط تحت وطأة الجوع .

أما الذين يجرؤون منا بالشكوى من أن الجزائريين يهاجرون إلى فرنسا ليغتصبوا أماكن العمال الفرنسيين ، فهل تراهم يعرفون أن ثمانين فى المائة منهم يرسلون نصف رواتبهم إلى عائلاتهم ؟ وإن مليوناً ونصف المليون من السكان الذين مايزالون يعيشون بين الخيام والأكواخ لا يقيم أودهم إلا من المال الذى يرسله لهم هؤلاء الـ ٤٠٠,٠٠٠ جزائرى الذين اختاروا المنفى مقراً لهم تحت وطأة الحاجة الملحة ؟ وهذا أيضاً نتيجة محتومة من نتائج النظام الاستعمارى البغيض : فالجزائريون مرغمون على التماس الخدمات فى فرنسا وقد حرموا منها فى الجزائر .

إن الاستثمار الاستعمارى دقيق غاية الدقة بالنسبة لـ ٩٠٪ من الجزائريين : أنهم مطرودون من أرضهم . مكدسون فى أراض غير صالحة مجبرون على أن يعملوا بأجور زهيدة تقرب من السخرة وتثير الاشمئزاز والسخرية . وقد فعل ذلك ليثبط عزائمهم فلا يثوروا خوفاً من التشرد وهكذا يصبح المستعمر سيداً متربعاً على عرشه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، يعز القلة ويذل الكثرة : فليس هناك ما يحمى العامل من غائلة العجز والمرض والشيخوخة ؛ فلا تأمينات اجتماعية أو صحية ولا مستودعات للطعام ، ولا مساكن للعمال . وإنما هناك مساكن متهالكة وقليل من الخبز والتين ، وعشر ساعات من العمل كل يوم : إن الأجر هنا هو أجر الكفاف لاستعادة القوى من أجل استئناف العمل .

هذه هى الصورة الحية فهل يمكن أن نجد على الأقل تعويضاً عن هذا البؤس المنظم الذى خلقه المغتصبون الأوروبيون ، فيما يطلق عليه « الخدمات العامة » ، من قبيل الأشغال العامة والصحة والتعليم ؟ لو كان لنا هذا العزاء ، لكان فى مقدورنا أن نحتفظ ببعض الأمل ، فلعل بعض

الإصلاح الذي يفعل بحكمة يخفف من هذا البؤس . ولكن لا . فالنظام الاستعماري لا يعرف الرحمة .

فما دامت فرنسا ، منذ اليوم الأول قد انتزعت من الجزائريين أملاكهم وأبعدتهم عنها وما دامت قد عاملتهم على أنهم كم مهمل لا يمثلون حتى أنفسهم فإن العمل الفرنسي كله في الجزائر ما وجد إلا لخير المستعمرين ومصالحهم الذاتية .

ولن أتكلم عن المطارات والموانى فهى لا تجدى الفلاح نفعاً إلا أنها تيسر له السفر إلى أحياء باريس الفقيرة ليقضى نحبه تحت وطأة الجوع والصقيع أماء الطرقات . فما شأنها ؟ إنها تصل المدن الكبيرة بأملاك الأوروبيين وبمناطق الاحتلال العسكرية .

وهى لم تنشأ لتتيح للجزائريين الوصول إلى منازلهم ومن الأدلة على ذلك أن زلزالا عنيفاً قد اكتسح مدينة « أورليانز » ومنطقة « شليف » السفلى في ليلة ٨ — ٩ سبتمبر ١٩٥٤ .

وقد أعلنت الصحف نبأ وفاة ٣٩ أوروبيا و ١٣٧٠ مسلما . وقد كان بين هؤلاء الضحايا ٤٠٠ شخص لم يعثر عليهم إلا بعد مرور ثلاثة أيام بعد الزلزال . ولم تصل النجدات الأولى إلى بعض الدور إلا بعد ستة أيام .

وفى التعليل الواهى الذى تقدمه فرق الإنقاذ حكم صارم على العمل الفرنسي : « ماذا تريدون ؟ لقد كان هؤلاء المسلمون بعيدين كل البعد عن الطرق العامة » وماذا عن الصحة العامة ؟

لقد أرادت الإدارة الفرنسية أن تقوم بتحقيق ، بعد زلزال أورليانز عن حالة الدور . فتبين عن طريق المصادفة البحتة أن الذين اختارتهم كانوا

على بعد ثلاثين كيلو مترا أو أربعين من المدينة وأن ، الطبيب المكلف بالاسعاف الطبى لم يكن يزورهم إلا مرتين فى العام .

أما ثقافتنا العظيمة ، فمن يدرى إذا كان الجزائريون يرغبون حقاً فى اكتسابها ؟ على أن من المؤكد ، حلنا بينهم وبينها . ولن أذهب إلى أننا كنا فى مثل وقاحة تلك الولاية من ولايات جنوبى الولايات المتحدة التى شرعت قانوناً ظل سارياً حتى مطلع القرن التاسع عشر ، نص فيه « تحت طائلة العقاب » كل من يقدم على تعليم العبيد الزنوج القراءة والكتابة ولكننا على كل حال ، أردنا أن نجعل من « إخواننا المسلمين » شعباً من الأميين .

ويبلغ عدد الجزائريين الأميين اليوم ٨٠ فى المائة ، وقد يهون الأمر لو أننا لم نحرم عليهم الاستعمال لغتنا . ولكن الواقع أن من متطلبات النظام الاستعمارى محاولة سد طريق التاريخ على المستعمرين .

ولما كان من مقومات القومية فى أوربا وحدة اللغة ، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات فاللغة العربية تعتبر فى الجزائر لغة أجنبية منذ عام ١٨٣٠ ، إنهم مازالوا يتحدثون بها إلى اليوم . ولكنها لم تعد لغة مكتوبة إلا بالقوة ، لا بالفعل . ليس هذا فحسب بل إن الإدارة الفرنسية قد صادرت دين العرب لكى تعمل على تفتيتهم وانتزاعهم من جوهم العربى . وهى تختار رجال الدين الإسلامى من بين عملائها ، وقد احتضنت أحط أنواع الخرافات التى تؤدى إلى سيادة التفرقة .

ولاشك فى أن الفصل بين الكنيسة والدولة اتجاه جمهورى أصيل يصلح لفرنسا .

أما فى الجزائر فإن الجمهورية الفرنسية لا تستطيع أن تسمح لنفسها

بأن تكون جمهورية فى الجزائر . إنها تحرص على عدم نشر الثقافة وتحافظ على المعتقدات التى تخدم الإقطاع ، وذلك بإتاحة الفرصة ليظل الإقطاع حياً سائداً بإقامة مجتمع بشرى تسود فيه القوانين ذات النزعة الفردية الحرة التى تقوض كل نهوض فى المجتمع الجزائرى ولكنها تبقى على الملوك الصغار الذين لا يستمدون سلطتهم إلا منها ، والذين لا يحكمون إلا من أجلها إنها بكلمة واحدة تصطنع « ناساً من أهل البلاد » تفصلهم عن الجمهرة الشعبية ذات العقلية المحافظة ، وذلك بأن تجعلهم فى تعلق فردى حر يفصلهم عن عقلية المجتمع القديمة . إنها توجد جموعاً ولكنها تحول بينهم وبين الوعى المستنير حيث تقوم بتضليلهم وخداعهم بما ترسمه لهم من مساخر هزلية .

وهنا نرانا مضطرين اضطراراً إلى الرجوع إلى محدثنا السالف الذكر — هذا المحدث الواقعى الطيب القلب ؛ الذى اقترح علينا القيام باصلاح عريض حين نادى بشعار « الاقتصاد أولا » وإنى أجيبه على الفور : بأن نعم ؛ لأن الفلاح يموت من المسغبة ، بل إنه بحاجة إلى الكثير ؛ بحاجة إلى الأرض والعمل والعلم ، فالأوبئة تنوشه وحالة الجزائر الراهنة صورة مؤلمة تطفح بألوان البؤس الناشىء فى الشرق الأقصى . ومع ذلك فمن المستحيل القيام بالتغيرات الاقتصادية الأساسية لأن بؤس الجزائريين وضنكهم هما النتيجة المباشرة التى يتطلبها الاستعمار ، والتى يستحيل إزالتها مع قيام الاستعمار .

وهذا ما يعلمه « جميع » الجزائريين الواعين ، فكلهم يؤمنون بقول ذلك المسلم « خطوة إلى الأمام ، وخطوتان إلى الخلف » تلك هى خطة الإصلاح الاستعمارى » الخطة التى تقضى على كل محاولة جدية للتنظيم السليم الخطة التى لا يمكن أن تبقى إلا إذا ازدادت كل يوم قسوة ومجافاة للإنسانية

ولنفرض ان فرنسا تقترح علاجا لهـذا الوضع ؟ إن أمامها ثلاثة حلول أو فروض .

١ — فهى إما أن تحقق من تلقاء نفسها الإصلاحات التى ينشدها المستعمر وتكون له وحده وقد مضت فى هـذا الحل فأتمت بناء سدود كثيرة وأقامت جهازاً كاملا للرى لزيادة المحصول الزراعى . ولـكن الحقيقة التى لا يمارى فيها هى أن الماء لا يروى إلا أراضى الوديان والسهول الأراضى التى كانت دائماً تعد من أجود أراضى الجزائر وقد اغتصبها الأوربيون ، ويعترف « مارتان » صراحة بأن ثلاثة أرباع الأراضى المروية انتهبهـا المستعمرون .

وإذا كنتم جادين أيهـا المستعمرون فاذهبوا إلى الجنوب الصحراوى وتعهدوه بالسقيا والرى !

٢ — وإما أن يشوه الإصلاح بحيث يصبح مبتوراً أو غير ذى فاعلية والحق أن نظام الجزائر هو فى حد ذاته نظام شائه ممسوخ .

فهل كانت الحكومة الفرنسية تنوى خداع المسلمين بانتخاب ذلك المجلس من قبل طائفتين من الناخبين ؟ إن النظام هناك لم يتح حتى للخداع أن يمضى إلى نهاية الشوط .

فالمستعمرون لم يتركوا للجزائريين نصيبهم من هذا الخداع ، فقد كان بالنسبة إليهم كثيراً عليهم : لقد وجدوا أن من الأيسر تزوير الانتخابات جهاراً ، مع اعتقادهم أنهم فى جانب الحق تماما : فخير لمن أراد أن يقتل الناس أن يطعنهم بالحراب . إنها جذور الاستعمار التى تتغلغل فى نفوسهم وتستبد بهم ، وما الاستعمار الجديد إلا الاستعمار القديم المقنع .

٣ ـ ولما أن ينحى الإصلاح الزراعى جانبا وتمعن الإدارة الفرنسية فى إجرامها .

كان قانون « مارتان » ينص على أن يتنازل المستعمرون عن بعض مساحات من الأرض للدولة ، مقابل زيادة المحصول التى تنشأ عن إرواء أراضيهم ، وقد باعت الدولة هذه المساحات إلى جزائريين أعطوا مهلة تسديد ديونهم فى خمسة وعشرين عاما . وأنتم ترون أن هذا الإصلاح كان متواضعا فالقضية بكل بساطة هى أن يشترى بعض السكان الأصليين المختارين قطعة صغيرة من الأرض التى سلبت من آبائهم .

ولم يكن المستعمرون ليخسروا مليما واحداً فى هذه العملية ولكن ليست القضية فى نظرهم ألا يخسروا شيئا . وانما القضية هى أن يربحوا دائما بل يحصلوا على مزيد من الربح . فلقد عودتهم فرنسا منذ مائة سنة على « التضحيات » التى كانت تقوم بها من أجلهم فلم يكن بوسعهم الموافقة على إفادة السكان الأصليين من هذه التضحيات وكان أن أهمل قانون « مرتان »

وللوقوف على الخطة الاستعمارية تلقى نظرة على الطريقة التى أعدوها فى الدوائر الزراعية لتلقين الفلاح المسلم ميكنة الزراعة أو أصول الزراعة الحديثة لقد عمدوا إلى إنشاء مؤسسة وهمية لهذا الغرض لم تكن الغاية منها إلا رفع طاقة الفلاح الإنتاجية رفعاً بسيطاً لايزيد محصوله زيادة ضئيلة حتى لا يموت جوعا .

ولكن مستعمرى فرنسا الجدد لم يدركوا فى بادىء الأمر أن هذه المؤسسة كانت إلبا على النظام .

فقد كان ينبغى أن يبقى إنتاج الفلاح قليلا حتى يباع بأسعار مرتفعة وحتى تظل الأيدى العاملة متوفرة .

. إن العمال الزراعيين يضحون نادرين إذا انتشر التعليم الفنى ، ويصبحون أكثر مطالب ، بل إن الملاك المسلمين يشكلون منافسة خطيرة .

ثم إن التعليم أيا كان ، ومن حيث أتى يصبح وسيلة للتحرر .

وإذا كانت الحكومة يمينية فإنها تدرك ذلك جيداً ، حتى أنها ترفض تعليم فلاحينا فى فرنسا بالذات ، فأولى بها ألا تنشر المعرفة الفنية بين سكان الجزائر .

وهكذا ظلت هذه الدوائر الفنية غير ذات عمل بعد أن هوجمت خفية فى الجزائر وبعنف فى مراكش .

وهكذا تظل جميع الإصلاحات عديمة الجدوى . وهى بصورة خاصة تكلف غالياً .

ولا يملك مستعمرو الجزائر وسائل تمويلها ، بسبب تكاليفها الباهظة بالنسبة لفرنسا . فإن نشر التعليم العام ـــ وهو إصلاح غالبا ما اقترح ـــ يكلف ٥٠٠ مليار فرنك « إذا حسبنا تكاليف كل تلميذ ٣٢٠٠٠ فرنك فى العام بينما لاتتجاوز ميزانية الجزائر كلها ٣٠٠ مليار ، والحق أن إصلاح التعليم لا يمكن أن يتحقق إلا فى جزائر مصنعة تبلغ ميزانيتها ثلاثة أضعاف ما هى عليه الآن .

ولكننا رأينا أن النظام الاستعمارى يعارض التصنيع ، مع أن فرنسا تستطيع أن تلتهم الملايين فى القيام بأعمال كبيرة .

وحين نتحدث عن النظام الاستعمارى . فيجب أن نتناقش ، فليست القضية قضية آلية مجردة فإن النظام قائم ، وهو يعمل ، فدائرة الاستعمار الجهنمية واقع ملموس .. وهذا الواقع يتمثل فى مليون من المستعمرين

وأبنائهم وأحفادهم ، شبوا فى كنف الاستعمار فأصبحوا يحكمون ويعملون وفق مبادىء النظام الاستعمارى .

ذلك أن المستعمر مصنوع كالمواطن الأصلى : إنه مرتبط بوظيفته ومصالحه مرتبط مع الحكومة الاستعمارية بالميثاق الاستعمارى ، فهو يتاجر لصالحه بالربا الفاحش ، فيثرى من بيع محصول البلد المستعمر . بل هو قد خلق زراعات جديدة تعكس حاجات فرنسا أكثر مما تعكس حاجات السكان الأصليين . فهو إذن يعمل فى ازدواج . إن له «وطنه» فرنسا « وبلده» الجزائر وهو فى الجزائر يمثل فرنسا ولا يريد أن تكون له علاقات بسواها.

ولكن مصالحه «الاقتصادية» تدفعه إلى معارضة الهيئات «السياسية» فى وطنه فهذه الهيئات الفرنسية ذات أنظمة ديمقراطية بورجوازية قائمة على الرأسمالية الحرة . وهى تتضمن حق الانتخاب وحق الاجتماع وحرية الصحافة.

ولكن المستعمر الذى تتعارض مصالحه مباشرة مع مصالح الجزائريين ، والذى لا يستطع أن يعيش إلا على الاستغلال والاحتكار لا يستطيع أن أن يقر هذه الحقوق إلا لنفسه ويتمتع بها فى فرنسا وسط الفرنسيين . وهو من هذه الناحية يبغض كل البغض أن تمتد النزعات الفرنسية إلى خارج فرنسا إذن فى هذه الحالة يمكن أن يطالب بها الشعب الجزائرى ؟ ويؤيد كل التأييد النزعات العنصرية التى لا تذهب مذهب شمول الحرية البورجوازية من أن جميع الناس يتمتعون بحقوق واحدة ، بل إنه يصنع من الجزائرى رجلا أدنى مستوى من سائر البشر ، واستنكاره لما تؤمن به الهيئات السياسية فى وطنه حين يريد مواطنوه أن يبسطوا نزعاتها «على بلده» يورث عنده نزعة انفصالية . أليس هو زعيم المستوطنين الجزائريين الذى قال منذ بضعة أشهر : « إذا كانت فرنسا حائرة ، فنحن نحل محلها » .

ولكن التناقض يبلغ مداه حين يذكر المستعمر أن المستوطنين الفرنسيين معزولون وسط المسلمين ، وأن نسبتهم هي تسعة الى واحد . والحق أنهم إنما يرفضون كل نظام يمنح السلطة للأكثرية ، لأنهم فرضوا على أنفسهم العزلة ؛ فما من وسيلة أمامهم للبقاء إلا القوة .

ولكن هذا السبب — أى عزلتهم — ولأنهم يشعرون بضآلة عددهم نراهم دائماً فى حاجة الى حماية الوطن الأم ، أى قوة الجيش الفرنسى . بحيث أن هؤلاء المستوطنين المنعزلين يحيون حياتين ، ويؤمنون بدينين ، فبينما هم يؤمنون بالجمهورية فى فرنسا — الى الحد الذى تسمح لهم هيئاتنا أن يقيموا لهم « سلطة سياسية » عندنا — إذا هم فى الجزائر فاشيون متطرفون يبغضون ديمقراطية الجمهورية ويؤثرون الجيش الجمهورى بالحب العنيف .

وهل فى مكنتهم أن يتحللوا من ذلك؟ لن يستطيعوا ماداموا مستعمرين لقد حدثنا التاريخ أن بعض الغزاة الذين أقاموا فى بلد ما واستوطنوه ، وامتزجوا بأهل البلاد وانتهى بهم الأمر الى خلق أمة جديدة،لها مصالح قومية مشتركة ، بالنسبة لبعض الطبقات على الأقل .

ولكن الاستعمار قد وقف سداً منيعاً وأقام حائطاً سميكا فولاذيا بين المستوطنين وأهل البلاد الأصليين .

فنحن نحتل الجزائر منذ أكثر من قرن ، ولم يكد يقع طوال هذه المدة أى زواج مختلط أو تتحقق أية مودة فرنسية إسلامية اعتقاداً منه أن مصلحة المستعمرين هى محو الشخصية الجزائرية من أجل فرنسا . فلو كانوا مؤمنين بالجزائر وتقدمها والإبقاء عليها لعملوا — تحدوهم مصالحهم الخاصة — على الاهتمام بالتنمية الاقتصادية والثقافة فى الجزائر .

وفى فترة الاحتلال ترى الوطن الأم واقعاً فى أحابيل الاستعمار ما دام

يفرض سلطاته على الجزائر مع أن الاستعمار يلطخ سمعته ويحط من شأنه ثم إن الاستعمار يجبر الوطن الأم على إيفاد فرنسيين روحهم ديمقراطية إلى الجزائر وقد يلقون حتفهم لا دفاعاً عن الحرية ولكن دفاعاً عن الاستبداد والظلم الذى يضطنعه مستعمرون فاشيون ، ولكن الحلقة تضيق هنا أيضاً فالظلم والطغيان الذى تمارسه لمصلحتهم يعرضهم كل يوم إلى مزيد من الإحن والأحقاد . ففرقنا العسكرية ، قدر ما تحميهم — تضاعف من الأخطار المحدقة بها ، مما يجعل وجود الجيش أمراً لا محيص عنه وسوف تكلفنا الحرب هذا العام ، إذا نحن واصلناها أكثر من ٣٠٠ مليار فرنك وهذا ما يوازى مجموع الموارد الجزائرية .

وها نحن أولاء نصل إلى النقطة التى يهدم عندها النظام نفسه بنفسه : إن المستعمرات تبهظنا بنفقاتها أكثر مما تدر علينا .

لقد كان المستعمرون متفقين مع أنفسهم ومخلصين لنظامهم حين قوضوا دعائم المجتمع الإسلامى ، ومنعوا حق التمثيل عن المسلمين ، فالتمثيل كان معناه ضمان جميع الحقوق الأساسية للجزائريين ، وأن يفيدوا من مؤسسات المعونة والأمن وأن تكون لهم فى مجلسنا النيابى مائة نائب جزائرى . وأن يهيأ السبيل للمسلمين ليعيشوا فى مستوى من الحياة يعادل مستوى الفرنسيين وذلك بإجراء إصلاح زراعى حقيقى وتصنيع البلاد . . وتمثيل الجزائريين معناه إذا تحقق نهاية الاستعمار : فكيف يسوغ الاستعمار هدم نفسه بنفسه ؟ ولكن ما دام المستعمر لا يهمه إلا مصلحته وسعادته ولو على أشلاء المستعمرين وبؤسهم فلا بد أن يكون لهذا الموقف السلبى رد فعل يتمثل فى وعى الجماهير .

لقد اكتشفت الشخصية الجزائرية نفسها كرد فعل للتجزئة والنضال فى سبيل الحياة ؛ وليست القومية الجزائرية مجرد إحياء للتقاليد والمواضعات

والصلات ، وإنما هى المخرج الوحيد الذى يملكه الجزائريون لوضع حد لاستثمارهم واستغلالهم .

لقد رأينا جول فيرى يصرح فى المجلس « حيث السيادة السياسية تكون السيادة الاقتصادية . . . »

ونحن نرى أن الجزائريين يترنحون ويتساقطون من جراء سيادتنا الاقتصادية ، ولكنهم يأخذون عبرة من هذه التجربة التى تمر بهم ، فلقد قرروا من أجل عدم سيادتنا الاقتصادية ، أن يهاجموا سيطرتنا السياسية وهكذا خلق المستعمرون لهم أعداء متربصين ، فأظهروا للمترددين الشاكين أنه ليس هناك من حل أمامهم إلا طريق القوة .

إن الحسنة الوحيدة التى يمكن أن تذكر للاستعمار هى أن يظهر بمظهر الصلابة والتشبث من أجل بقائه واستمراره وفى هذه السياسة المتشددة يضع نهايته ويقيم لحده .

أما الدرس الوحيد الذى تعلمناه من هذه الأحداث ـــ نحن فرنسيى الوطن الأم ـــ فهو أن الاستعمار يعمل الآن على هدم كيانه ، ولكنه مازال سادراً فى تعكير الجو . إنه عارنا ، وهو يتنكر لمبادئنا ويظهرنا بمظهر ساخر أمام العالم . انه ينشر بيننا وباء العنصرية ، كما أثبتت ذلك حوادث « مونبليه » أخيراً وهو يفرض على شبابنا بذل حياتهم رغما عنهم من أجل مبادىء نازية نحاربها منذ عشر سنوات ، وهو يحاول أن يبرر أعماله الوحشية بخلق الفاشية فى داخل بلادنا ، فرنسا ذاتها ، وأن مهمتنا هى أن نساعده على أن يلفظ أنفاسه الأخيرة لا فى الجزائر وحدها ، بل حيثما وجد وأنى كان ، ولا شك أن الذين ينادون بالتخلى عن الجزائر هم أناس بلهاء ، فليس لنا أن نتخلى عما لم نملكه قط . بل الأمر على العكس هى أن نقيم مع الجزائريين علاقات

جديدة . . علاقات بين فرنسا الحرة والجزائر الحرة . . ولكن فلنحذر هذا الخداع المغلف بالإصلاح فقد ينأى بنا عن السبيل الذى رسمناه .

ان الاستعمارى الجديدى هو انسان يخبط فى متاهات الضلال ما دام يعتقد أنه فى الامكان تحسين النظام الاستعمارى أو هو انسان يتسم باللؤم والمكر ، فهو يقترح الإصلاحات لأنه على يقين من أنه لامتع من ورائها .

ان الإصلاح سيتحقق من غير شك ولكن الشعب الجزائرى هو الذى سيحققه .

ان الشيء الوحيد الذى يجب أن نقدمه للجزائريين اليوم هو أن نؤازرهم فى جهادهم لتحريرهم وتحرير الفرنسيين من وصمة الاستعمار البغيض .

---

# شهود من المجندين .

لقد نشرت فى الفترة الأخيرة بيانات ووثائق عن وسائل السلام التى تتبعها فرنسا فى الجزائر .وذلك فى كتاب عنوانه « شهود من المجندين » Des Rappels temoignent فهل اطلعتم عليه ؟ ؟

إن هؤلاء العائدين من المسيحيين كهنة ورجال دين مجندون .

ومن المحتمل أن تختلف آراؤهم فى السياسة وتتباين رغم أنهم لم يذكروا لنا عنها شيئاً ولن تكن رغبتهم جميعاً الكشف عن هذا القرح — الذى فشا فى الجيش ولن لم يعمه كله ، والذى أصبح من المستحيل تحديد مكانه بالضبط — وعن ممارسة الدكتاتورية العنيدة وأساليب العدوان والاستغلال والقسوة ، فهناك تسلب الأموال وتنتهك أعراض النساء ، وينتقم من المدنيين بممارسة إبادة الجنس وقتل الجماعات دون أدنى محاكمة ، ويساموون أبشع أدوات التعذيب فى استجوابهم للإدلاء باعتراف أو تقديم معلومات .

والحق أن هؤلاء الشهود تحدثوا فى صراحة مذهلة ففضحوا جميع جرائم الحرب التى شهدوها بأعينهم ولمسوها بأنفسهم .

إن هذه الشهادات العادلة ، المنصفة التى يجيزها أشد الناس إجراما ، إنما تؤلف وثيقة رهيبة ، وأن قراءتها أمر عسير ، فطالبها يغالب نفسه

للإنتقال من سطر إلى سطر ومن فقرة إلى فقرة .

وبالرغم من ذلك العناء المعنى فانى أوصيكم بقراءة هذا الـكتيب ، أوصى جميع الذين لم يقرأونه للآن بالقراءة ، كما أعنى أن يقرأه جميع الفرنسيين ، ذلك لأننا مرضى نعانى من داء وبيل .

إن فرنسا المحمومة ، المأخوذة بأحلام مجدها التليد من غير أن تستشعر الخجل ، تتخبط وسط ظلام دامس وتحت وطأة كابوس ثقيل لاتستطيع منه حراكا ، فاما أن نرى كل شيء أمامنا بوضوح تام وإما أن ننفجر بالسخط والغضب .

فمنذ ثمانية عشر عاما نرى أن بلادنا كانت فريسة لما أسماه القانون ( عملية قتل المعنويات ) والحق أن قتل معنويات أمة لايتأتى أولا بتحطيم معنوياتها وإنما يكون بانحطاط أخلاقها .

أما الوسيلة فلا يجهلها أحد، فحين ألقوا بنا فى مغامرة حقيرة أوحوا إلينا شعوراً بالذنب الاجتماعى .

ولكننا ندلى بأصواتنا وفى أيدينا السلطات ونستطيع بطريقة ما أن نسحبها . فان ثورة الرأى العام تستطيع أن تسقط الوزراء وينبغى أن نكون على علم بالجرائم التى ترتكب باسمنا حتى نستطيع إيقافها ، وهذا الشعور بالذنب الذى يرقد فى نفوسنا من غير أن يتحرك ينبغى أن نضعه فى حسابنا وأن نذل و نسفل لكى نستطيع احتماله .

على أننا لم ننحط إلى مثل هذا الدرك حتى نسمع صراخ طفل معذب

فلا نتألم ولا نشعر بهول المصاب (١) .

وقد يسهل علينا أن نهون من هذا الأمر لو أن هذه الصرخات تطرق أسماعنا بالفعل ، ولكنهم فى الواقع يسدون إلينا جميلا بكتمانها عنا .

ليست القحة هى التى تقتل معنوياتنا أو البغض والحقد وإنما هى كتمان الحقائق عنا حتى نعيش فى ظلام لا أول له ولا آخر ، وقد نسهم نحن أنفسنا فى الإبقاء عليه .

إن حكامنا بحرصهم الشديد على توفير الراحة لنا لايتورعون عن ألا يزودونا بالمعلومات والحقائق الصحيحة بتعمدهم إخفاءها أو تصفيتها .

فمثلا حين يقتل الثوار أسرة أوربية لاتنقل إلينا الصحف شيئاً من أخبار هذه المجزرة حتى ولا صور الجثث والأجساد الممزقة ، ولكن حين لايجد محام مسلم أى ملجأ من جلاديه الفرنسيين غير الانتحار فإن الخبر يشار اليه باقتضاب وفى كلمات قلائل ( حرصاً ) على حساسيتنا .

فالنفاق والخداع والكذب واجب على ناقلى الأخبار فى فرنسا ، والجريمة الوحيدة هى تعكير صفونا .

ولقد أكدوا ذلك الواقع للسيد بايرجا Peyerga فلن نجد فى الجزائر من يمكنه إنكار الأحداث التى نقلها إلينا ، وما أخذوه عليه فحسب أنه رواها لنا نحن الفرنسيين .

وهناك أيضاً جنود فرنسيون يذبحون فى شوارع مدن الجزائر تحت

---

(١) تراجع الصفحتان ١٠ و ٥٩٩ من كتاب ( شهود من المجندين ) .

أنظار السكان الأوربيين المتعطشين لإثارة الحرب . ولكن هـــذا ليس من شأننا .

إن حقيقة إفريقية هى خمر قوى آسر لا تستطيع رؤوسنا المرهفة إحتماله:

فماذا يصيب المستوطنين إذا ترنحت البلاد الفرنسية ؟

إن الهدوء هو ما نحتاج إليه ، ونحتاج أيضاً إلى فترة استجمام وبعض ألوان التسلية : فمنذ عهد لويس السادس عشر أصبح كل فرنسى يتيما ، وأن حكومة موليه تعرف حداد طبقتنا البرجوازية وتقاسمها إياه ، وهى على استعداد لتقديم أية تضحية ، فقد نصبت ملكة انجلترا على عرش فرنسا لمدة ثلاثة أيام فما ألذ ذلك وأجمله ! !

إن الناس يتحدثون فيما بينهم من غير أن يعرف بعضهم بعضاً ، وهم يتماسكون بالأيدى ويرقصون . وبالرغم من ذلك فإن فى الجزائر أبطالا مكافحين يواصلون جهادهم ، فليس عند الجلادين أيام عطلة أو أعياد فإن الإذاعة تحمل إليهم آيات جنودنا فيقولون لأنفسهم : « أما وقد حصلوا الآن على غايتهم فليتركونا وشأننا » ..

وقد توجهت الملكة فى أثناء استراحتها إلى قصر وندسور فإذا فرنسا وهى فى ســـورة الحب والمرح تسقط إعياء وتلازم الفراش ، فما كان من الحكومة الفرنسية إلا أن أشارت إلينا من طرف خفى وهى تمشى على حذر هامسة : « لا تقلقوا نومها » !

وبالرغم من هذا فإذا أتيح لواحد منا أن يستيقظ من سباته ، وأن يسأل ممرضيه فسرعان ماتعمد الحكومة إلى حيلة أخرى ، وبأسرع ما يمكن تؤلف لجنة تنحصر مهمتها فى التخفيف من مسئولياتنا وأن تقول لنا :

« هل تجاوزنا الحد ؟ وهل حدث منا سوء تصرف ؟ »

ربما ، ولكنها مرة أو مرتين ، ولابد أن تقع أخطاء فى الحروب . ثم خبرونا : ما الذى يشغلكم ويقلق بالكم ؟ إنكم تعيشون بعيداً عن الجزائر ، ولا تعرفون القضية على حقيقتها ، فأولوا ثقتكم إذن هذه اللجنة التى سنكونها من أشخاص متصفين بالطيبة متخصصين فى حالات الوساوس وقلق الضمير ، فابلغوها ما يساوركم من قلق ، وسوف تنقله هى الى الجزائر ، أما أنتم فناموا قريرى العين مرتاحى الضمير » .

ولكن ليتنا نستطيع النوم ، أو نستطيع تجاهل كل شىء ! !

ليتنا منعزلون عن الجزائر بجزر من الصمت ! ! وليتهم يستطيعون خداعنا ! !

إن الأجنبى قد يستطيع حينئذ أن يشك فى ذكائنا ، ولكنه لن يشك فى سلامة ضمائرنا .

والواقع أننا لسنا سليمى الضمائر . إننا قذرون. إن ضمائرنا لم تعكر وهى مع ذلك مبلبلة . وحكامنا يعرفون ذلك حق المعرفة . وهم يريدوننا على هذا النحو . إن كل الذى يريدون أن يتاح لهم بهذه الرعاية والعناية والتحفظ هو اشتراكنا فى الجريمة تحت ستار من الجهل الزائف ، فالناس جميعاً قد سمعوا بأساليب التعذيب ، وتسربت هذ الأنباء إلى الصحف الكبرى رغم كل شىء وكل رقابة . ونشرت صغرى الصحف التى تتسم بالشرف بعض شهادات مختلفة .

وتداولت الأيدى نشرات عديدة ، وعاد جنود يتحدثون عما شاهدوه ولكن هذا هو مايخدم الذين يعملون على إفساد المعنويات وزلزلة القيم : لأن كل شىء يتوه أو ينبت فى الكتل البشرية ، ويجب أن تمهد السبل للأنباء الواردة من هنا وهناك ثم تلتوى بها السبل الضيقة المتداخلة ويقضى

على الأنباء ، أما الصحف والنشرات فلا تقرؤها غالبية الفرنسيين لأنهم لا يستطيعون قراءتها ، وإنما هم يعرفون أشخاصاً بأعينهم يقرءون لهم ، وكثيرون منا لم يحدث أبداً أن استمعوا إلى مجند وهو يتكلم، وإنما نقل إليهم ما كان يرويه بعض المجندين العائدين .

وهذه الشهادات البعيدة المتناقلة فى تواتر تكذب رسمياً ، ثم تتضاءل فى أثناء تداولها تدريجياً . وهنا ندخل فى دور التساؤل ويا للأسف ! لماذا نصدق كل هذه الروايات ؟ ؟ أين هى الأدلة ؟ أين هم الشهود ؟

أما الذين يقولون أنهم مقتنعون ؛ فلأنهم كانوا كذلك من قبل . صحيح أنه لا يمكن رفض جواز حدوثها ولكن علينا أن نتريث وأن ننتظر ، وعلينا ألا نصدر الحكم قبل أن نتأكد ، وإذن فنحن لا نحكم ولا نستعلم كذلك . فمجرد أن نحاول الحصول على أوراق الدعوى حتى يتحول مجتمعنا الواضح إلى غابة بكر : نسمع فيها دوى الطبل من مسافة بعيدة ، وبشكل غامض ، وإذا أزدنا الاقتراب من مصدر الدوى رأينا أنفسنا نسير فى حلقة مفرغة ثم نكتفى بأن نقول : يكفينا ما نتحمله من هموم شخصية ولا داعى لتحمل هموم الآخرين .

إن الذى قضى يومه فى الكد والعمل وقابل فى مكتبه كثيراً من مضايقات الحياة اليومية ، ليس ملزماً بأن يقضى السهرة فى جمع الأخبار عن العرب ومتاعبهم .

وهذه هى أول أكاذيبنا — ليس على الذين يفسدون المعنويات إلا أن يقفوا معاً ويقولوا : إننا سننجز العمل بأنفسنا . والحق أن الهموم الذاتية لا تحول بين المرء وبين قراءة الصحيفة اليومية بعد العشاء ، والحكم على القضايا العامة يلهى عن القضايا الخاصة .

ولن ذرف الدموع أو الاستسلام لعسر هضم عنيف ينسى الغضب المكبوت فى النفس طيلة النهار . إن الصحف تخايلنا : فهى تريد أن تدخل فى روعنا . أننا طيبون... وهنا يكمن الكذب ، وتبريره يسير فإننا تنقصنا الأدلة ولذلك لانستطيع أن نصدق شيئاً . غير أننا لا نبحث عن هذه الأدلة لأننا نقسر على المعرفة . وما الذى كان يبغيه الذين يقومون على إفساد معنوياتنا ؟ إنهم يبغون ذلك ولا شىء سواه : جهلا قائما على العذر ، ولا يمكن التجاوز عنه ، إنه يدفعنا إلى طريق الهوان ويقربنا شيئاً فشيئاً من هؤلاء الذين كان يجب علينا أن نحكم عليهم ، حتى إذا اقتربنا منهم كل القرب لم نلبث أن نصيح : الناس إخوة ، « والناس سواسية » ثم نرتمى فى أحضانهم .

أما كذبتنا الثانية فقد أعدوها لنا . إن الفخ يتمثل فى اللجنة المشكلة وحبذا لو أمكننا أن نثق بها ، ولكن على فرض أننا نريد ذلك ، فمن أين نستمد الخداع اللازم ، وما فائدة أية لجنة حين تزداد المذابح والجرائم فى جميع أنحاء الجزائر ؟ من الذى سينقل إليها وهى فى مدينة الجزائر ، ما يقترف فى الريف ؟ ومن الذى يبادلها الرأى ؟ وفى أى شىء ؟ أتراها ستذكر الناس بحقوق الإنسان ؟ إن الجميع يعرفونها بما فيهم السيد « لاكوست » إن القضية تتمثل فى الاعتراف بحقوق الإنسان : فكيف يراد لها أن تبلغ ذلك ؟ .

وإذا كان الوزير المقيم لا يستطيع أن يحد من الأعمال غير المشروعة فهل يظن أن تعيين بضعة مستشارين معه سيمكنه من القضاء على هذه

الأعمال ؟ وإذا كان هو نفسه يستطيع أن يقضي على الجرائم والمآثم ، فما حاجته إليهم ؟ الحقيقة هي أن الحكومة قامت بحركة ما ، فصرح السيد موليه بأنه « قلق مضطرب » وأنه يبغى التنور فى الموضوع كله . وإذا نحن صدقناه كان لنا فى ذلك عذرنا :

إن الكلمة الإنسانية موضوعة لكى تصدق . وإذا نحن لم تصدقه كان لنا عذرنا :

فكلمة السيد « موليه » موضوعة لتكون مثار شك وريبة . إننا نعرف أن لجنة التحقيق ستكون من رجال لا غبار عليهم ولا مطعن فيهم ونعرف أيضاً أنها لن تستطيع أن تؤدى أى شيء :

إن نزاهتهم تفيدنا فى أنها تقنع عجزهم ، ولذلك فنحن نرفض أن نمنح الحكومة ثقتنا وإن كنا نعتمد عليها لكى تبدد شكوكنا .

مجرمون . مجرمون مرتين . إننا نشعر بأننا فريسة ضيق واضطراب ، إن لم يكن هو الهول بعد فإنه النذير بأن الهول قريب منا وأنه يتهددنا لدرجة أننا لا نستطيع ولا نريد أن نلقاه وجها لوجه . وفجأة يلمع بريق يخطف الأبصار فنهتف : « هل كان هذا صحيحاً ؟ » .

وهكذا يجد كل منا جاره مريباً ويخشى أن يبدو هو مريباً أمام جاره . قد يختلف بعض الأصدقاء فى الرأى حول قضية الجزائر ولكن ذلك لا يحول دون احترام بعضهم لبعض . ولكن ما القول فى الإعدام بالجملة أو إبادة الجنس ؟ وما القول فى ألوان التعذيب المختلفة ؟ هل من الممكن الاحتفاظ بصداقة هؤلاء الذين يقرونها ؟ إن الجميع واجمون ينظر بعضهم إلى بعض وكل منهم يحدث نفسه متسائلا « ما الذى يعرف ؟ ما الذى

يظنه ؟ ما الذى اعتزم أن ينساه ؟ » إن الناس يخافون الحديث فيما بينهم إلا إذا كانت أفكارهم متشابهة متقاربة . فإذا حدث واكتشفت مجاملة خبيثة من إنسان شد على يدى فإن هذا الإنسان لا ينطق بشىء ؛ ومن لا يتفوه بشىء عد موافقاً « فالسكوت رضا » كما يقولون ، غير أنى أنا الآخر أمسك عن الكلام .

ولكن لنفرض أنه هو الذى كان يأخذ على ضعفى وتخاذلى ؟.

إن الحذر يفرض علينا عزلة جديدة : وهذه حالنا فنحن نعيش فى انفصال عن مواطنينا خشية أن نحط أو يحط من قدرنا .

والحقيقة أن هذا شىء واحد ، فنحن جميعاً متشابهون ونحن نتحرج من أن نسأل الآخرين لأن إجاباتهم ستكشف عن انحطاطنا وضعفنا فمثلا إذا همس أحدهم بهذا السؤال ليتحلل من قلقه ، ويلقى بأثقاله و يبرر جرائمنا :

والثوار ؟ ألم يرتكبوا الفظائع ؟

نفهم فجأة أن الرعب والظلام والصمت المطبق قد أهوت بنا مرة أخرى إلى عصور الثأر البربرية .

وأن نحكم على الفرنسيين بوصف واحد هو أنهم ذوو ضمائر فاسدة ربما نستثنى منهم السيد « موليه » !

وهذه الضمائر هى التى تنزع بنا إلى الإجرام لن تشتت فكرنا ، ولعبة « الغماية » التى نلعبها فى داخل أنفسنا . وهذه المصابيح التى تخفت ضوءها ، وهذا القلق المؤسف ، ينبغى ألا نجد فيها جميعاً طريق الخلاص بل نذير ترد عميق ، إننا نهوى إلى قاع البحر وقد تثور ثائرتنا عندما

نرى الآخرين يصدرون حكمهم القاسى علينا ، فيجرفنا غضبنا شيئاً فشيئا إلى المشاركة فى الجريمة :

ليس من حق الولايات المتحدة الأمريكية أن تتكلم فإنها تعامل هى الأخرى الزنوج فيها معاملة شاذة : .

هذا صحيح فإنه لا يحق لأمريكا أن تتكلم ، ولا يحق كذلك للسويد التى ليست دولة مستعمرة ، لا يحق لأحد أن يتكلم .

أما نحن فيجب علينا أن نتكلم ، وهانحن أولاء لا نتكلم . إن لنا مراسلين شرفاء لا تنقصهم الشجاعة ، يدلون إلينا بما يعرفون كل يوم أو كل أسبوع فإذا نحن نسعى إلى هدمهم أو سجنهم .

وهكذا يقل الاستماع إليهم ولكن ما دهى الأصوات الشريفة المدوية التى أخذت ترنم ترنيمة الأرغن فى نوفمبر الماضى؟

لقد فاضت أنفسنا حسرات ، وصعدنا حر الأنفاس وزأرنا لوقف التدخل السوفيتى فى المجر(١) ، مادهى هذه الأصوات اليوم فلا تفضى إلينا بكل شىء عن أنفسنا ، عما نفعله فى الجزائر إنكم تحيطون بكل دقيقة وجليلة وليس لكم عذر الجهل ، والوثائق والأدلة تحت أسماعكم وأبصاركم .

إن الأمر يتعلق بنا اليوم ونحن بحاجة إلى أن نعرف وأن نصدق ، إنكم وحدكم بيدكم خلاصنا من هذا الكابوس الجاثم على صدورنا وإنقاذنا من هذا العار الذى ألصق بنا ولكنكم وا أسفاه ستكونون سكون القبر وإنه لتقدير خاطىء إلا يحكم علينا من صمتكم اليوم ، بل من ثورتكم فى نوفمبر الماضى .

---

(١) كان ذلك عام ١٩٥٦ « لجنة كتب ثقافتنا » .

لماذا ؟ لأننا صامتون الآن ، ولأننا سنوضع فى مأزق حقير ، وفى موضع سبق لنا أن تصدينا له نحن أنفسنا بطالعنا السيء . إنها براءة مصطنعة ، وهروب من الحقيقة ، ومجاملة مرذولة ، وعزلة رهيبة وصمت مطبق ومشاركة فى الجرم مرفوضة ومقبولة .

وهذا ما أسميناه عام ١٩٤٨ بالمسئولية الجماعية إذ ما كان ينبغى للشعب الألمانى فى تلك الفترة أن يجهل وجود معسكرات التعذيب ، وكنا نقول :

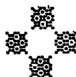
كفى هذيانا . لقد كانوا يعرفون كل شيء ! « وكنا على صواب فقد كانوا فعلا يعرفون كل شيء واليوم فقط نستطيع أن ندرك ذلك ، فإننا أيضاً نعرف كل شيء .

إن معظم الألمان لم يكونوا قد شاهدوا « داشو » ولا « بوشانوالد » ولكن الأنباء قد تواترت إليهم من أناس شاهدوا الأسلاك الشائكة أو وقعوا على ملفات سرية مطوية فى إحدى الوزارات ، وقد كانوا مثلنا يعتقدون أن هذه الأنباء غير موثوق بها مطعون فى صحتها فكانوا يمسكون عن الخوض فى الحديث وكان يحذر بعضهم بعضا . أنستطيع بعد هذا أن نجرؤ على الحكم عليهم ؟ أو أن نجرؤ على تبرئة أنفسنا ؟

إن علينا أن نفرش الأبسطة فى ساحة « الكونكورد » حتى نحمل العالم على أن ينسى أن هناك أطفالا يسامون سوء العذاب باسمنا وأننا لانرفع صوتنا استنكاراً لهذه الأهوال البشعة إنه لم يفتنا الأوان بعد لإحباط عمل هؤلاء الذين دأبوا على هتك شرفنا القومى وتلويث سمعتنا ولايزال من الممكن تحطيم الدائرة الجهنمية التى أغلقت علينا من مسئولين غير مبالين ، هذه السذاجة الخبيثة ، هذا الجهل الذى هو المعرفة ، فلننتظر

إلى الحقيقة ، فهى التى ستمكن كلامنا من أن يعمل علانية على وقف الجرائم المقترفة ، ولما أن نتبناها ونرضى عنها ونحن بكامل وعينا .

من أجل هذا أصبح لزاما على أن أرشد الجمهور إلى كتاب المجندين العائدين ، ففيه الحقيقة المرة ، والهول المفزع ، هولنا نحن ، فنحن لن نستطيع أن نراه من غير أن نتخلص منه ونقضى عليه قضاء مبرما .



# الجلادون !

لقد كان الفرنسيون فى عام ١٩٤٣ — حينما كان مصير الحرب معلقاً فى ضمير الغيب — يعانون من القلق والألم . وعلى الرغم من أننا لم نكن نفكر كثيراً فى المستقبل إلا أننا كنا مجمعين على أن أمراً واحداً يبدو مستحيل التحقيق ألا وهو أن يكون فى استطاعتنا أن نجعل رجالا آخرين يضجون مما نعانيه فى تلك الفترة الحالكة .

لأن كلمة المستحيل ليست كلمة فرنسية الأصل : فالجزائريون فى عام ١٩٥٨ أصبحوا يسامون سوء العذاب بشكل منظم ومستمر ، والكل على علم بما يحدث من لاكوست إلى مزارعى لافيرون . . ولا يستطيع أحد أن يتكلم أو يخوض فى مثل هذا .

هذا ولئن كانت فرنسا تحت الاحتلال أكثر بكما منها الآن ، بالرغم من أنه كان لها العذر إذا هى حملت السلاح .

لقد حكموا علينا فى الخارج بأننا شعب نسير فى طريق الانحلال والانحدار منذ عام ١٩٢٩ فى رأى بعضهم وفى رأى الآخرين منذ عام ١٩١٨ .

وإنه لقول مرتجل فأنا لا أجزم فى سهولة بانحدار شعب ولئن كنت على يقين من خبله وفشله التدريجى .

وفى أثناء الحرب عند ما كانت الإذاعة الانكليزية أو المنشورات السرية

تتحدث عن « أورادور » كنا ننظر إلى الجنود الألمان الذين كانوا يتجولون فى الطرقات نظرة بريئة وكنا نقول أحياناً : إنهم على كل ماحدث رجال يشبهوننا فكيف يكون باستطاعتهم أن يفعلوا مافعلوا ؟

وكنا نفخر بأنفسنا لأننا عجزنا عن الفهم .

واليوم نعلم أنه ليس هناك شيء قابل للفهم .

لقد تم كل شيء فى غفلة واستسلام غير ملحوظ وعندما تمكنا من رفع رءوسنا ونظرنا فى المرآة وجدنا وجهاً غريباً منفراً هو وجهنا .

إن الفرنسيين يكتشفون فى غمرة هولهم ، هذه الحقيقة الرهيبة : فإذا لم يكن هناك مايحصن أمة من نفسها لاماض عريق ولا رصيد من الأمانة ولاقوانينها الخاصة بها وإذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا إلى جلادين، فذلك لأن الظرف هو وحده الذى يفصل فى هذا الأمر فوفق الظروف يستطيع الفرد فى أى مكان وفى أى زمن أن يتحول إلى ضحية أو إلى أن يكون جلادا .

إن الذين استشهدوا من غير أن يضطروا إلى أن يسائلوا أنفسهم هذا التساؤل هم السعداء . « أترانى أعترف إذا هم نزعوا أظفارى ؟ » وأسعد من هؤلاء، وأولئك الذين لم يشبوا عن الطوق بعد ولم يضطروا إلى أن يسائلوا أنفسهم هذا السؤال الآخر :

« ما الذى أنا فاعله ؟ إذا تراءى لأصدقائى ولإخوانى فى امتشاق السلاح أو رؤسائى إلى انتزاع أظفار عدو أمام ناظرى ؟ »

وهؤلاء الشباب الذين يزج بهم فى المواقف الحرجة ، ماذا يعرفون عن أنفسهم ؟

القرارات التى تتخذ هنا ، يظنون أنها عندما يحين الأوان ستبدو لهم مجردة هواء ، وإن وضعا غير مرتقب سيعيد النظر فى قضيتهم كلها من جديد وان عليهم أن يقرروا هناك وحدهم ، مصير فرنسا ومصيرهم . وهاهم أولاء يروحون وآخرون يغدون وقد أقروا بعجزهم عن إمكان التغيير فاحتفظ أغلبهم بالصمت وقد انطوت أضالعهم على الحقد والموجدة ثم يتولد الخوف من النفس ومن الغير ويجتاح جميع الأوساط ويلم جميع الفئات فإذا الضحية والجلاد ليسا إلا صورة واحدة هى صورتنا .

وفى الحالات القصوى ، تكون الطريقة الوحيدة للامتناع عن تمثيل أحد هذين الدورين هى أن نطالب بالآخر .

والاختيار بين هذين الأمرين لا يفرض على الفرنسيين وهو لم يفرض حتى الآن ، ولكن عدم التحديد هذا يثقل كاهلنا : وبسببه تكون « الجرح والسكين » معا فالهلع من أن يكون السكين والفزع من أن تصبح الجرح وكلاهما يتبادلان التأثير والقوة وتصحو ذكريات راقدة

فمنذ خمسة عشر عاما ، كان أشجع المقاومين يخشون الألم أقل مما كانوا يخشون استسلامهم . وكانوا يقولون :

حين يغشى الضحية الصمت فإنها تنقذ كل شىء ، وحين تتكلم فليس لأحد الحق فى أن يحكم عليها ، حتى الذين لم يتكلموا . ولكن الضحية تتزوج جلادها انها امرأته ، وهكذا يغرق هذا الزواج فى ليل الوضاعة وقد كر هذا الليل الوضيع ، عاد إلى « البيار » فى كل ليلة . وإنه فى فرنسا سواد قلوبنا وإن أية دعاية هامسة خافتة تتيح لنا أن نسمع منها أن جميع الناس يتكلمون .

هذه هى ألوان التعذيب التى تبررها الجهالة الإنسانية فما دام كل واحد منا خائنا بالفطرة ، فالجلاء الكامن فى كل منا يخطئه الانزعاج والتأثر وخاصة أن عظمة فرنسا تملى علينا ذلك . . وأصوات ناعمة معسولة تفسر لنا ذلك كل يوم :

المواطن الصالح هو ذو الضمير الطيب أما صاحب الضمير الشرير فلابد أن يكون من دعاة الهزيمة والتردد .

وسرعان ما تتحول الدهشة إلى قنوط . فإذا كانت الوطنية هى أن نلقى بأنفسنا بين مخالب الضعة ، وإذا لم يكن هناك أى حاجز فى أى مكان يحول بين الأمم أو الإنسانية جميعها وبين أن تتردى فى الحيوانية ،فلماذا إذا تبذل هذا الجهد لنحافظ على إنسانيتنا ؟ أن الحيوانية هى حقيقتنا .

ولكن إذا لم يكن أى شىء آخر صحيحاً ،إذا كان لا بد من الإرهاب أو أن نموت رهبة وخوفاً ، هذا الجهد الذى تبذله من أجل الكفاح فى سبيل العيش ومن أجل أن نكون وطنيين ؟ .

لقد صبوا هذه الأفكار فى رءوسنا صباً ،وأنها لأفكار يلفها الغموض ويشملها الخطأ .إنها تخرج كلها من هذا المبدأ نفسه :

الإنسان هو الذى لا إنسانية فيه ولمن هدفهم من وراء ذلك ، هو اقناعنا بعجزنا ، وأن تصل هذه الأفكار إلى هدفها مادمنا لا نواجهها والحق أنه يجب أن يعرف عنا فى الخارج : أن سكوتنا لا يعنى قبولنا لما يجرى فى الجزائر.إن صمتنا مرده إلى الكابوس الذى يضعونه ويجسمونه ويوجهونه ولقد كنت أعرف ذلك من قبل . ولكنى كنت فى انتظار الدليل القاطع وهأنذا قد وجدته .

منذ حوالى خمسة عشر يوما ، ظهر كتاب فى إحدى دور النشر تحت عنوان ( الاستجواب ) ومؤلفه هو ( هنرى أليج ) الذى لما يزل معتقلا إلى اليوم فى أحد سجون الجزائر ، وهو يروى ، من غير تعليق أو تعقيب وبدقة فارطة أنواع الاضطهاد والتعذيب التى اكتوى بها من أجل إجباره على أن يعترف . ولقد ( اعتنى ) الجلادون به كما وعدوه بذلك هم أنفسهم : فقاسى عذاب العطش ، تماما كما كانوا يفعلون أيام ( البرنفيلية ) . .

وأضيف إليه هذه الأفانين الجديدة التى أدخلها عصرنا المتمدين ، عذاب الكى بالنار وحرقة العطش .

إنه كتاب لا تنصح النفوس الحساسة ذات المشاعر المرهفة بالاطلاع عليه . والواقع أن الطبعة الأولى — وهى عشرون ألفاً — قد نفذت . وبالرغم من أن هناك طبعة ثانية تمت على عجل ، فقد عجز الناشر عن تلبية الطلب الملح ، فإن بعض المكتبات تبيع من النسخ مايتراوح بين خمسين ومائة فى اليوم .

والذين يجسرون على الإدلاء بشهاداتهم حتى الآن هم الذين قضوا حياتهم مع إخوتهم ولإخوتنا من الجلادين ، ولم يتبينوا من الضحايا غالباً سوى صراخهم وأنينهم من عذاب جراحهم وآلامهم .

وكانوا يصفون لنا هؤلاء الساديين الذين استعذبوا تعذيب الناس ، وكيف انحنوا يمزقون الأجسام الطاهرة .

ولكن ما الفارق بيننا وبين هؤلاء الساديين ؟

لا شىء مادمنا نسكت على جرائمهم : وكان غضبنا يبدو لنا صادقاً . ولكن هل كنا نحتفظ به لو كنا قد عشنا هناك ؟ أما كان هذا الغضب يتحول إلى استسلام مر كئيب ؟

لقد كنت من ناحيتى أعكف على القراءة لأن واجبى يدفعنى إلى ذلك وكنت أنشر أحياناً بعض ما أكتب، وكنت أنظر بعين الاحتقار إلى هذه القصص التى تضعنا فى قفص الاتهام من غير مشقة ولا رحمة ، والتى لم تكن تترك لنا أى بصيص من أمل !

أما مع هذا الكتاب «الاستجواب» فإن كل شىء تبدل : إن «أليج» يوفر علينا مضاضة اليأس وحرقة الخجل لأنه ضحية ولأنه كان فوق مستوى العذاب أو فوق مستوى البشر .

وهذا التحول لا يتم من غير روح السخرية والحزن . لقد عذبوه باسمنا ، وإننا لنسترد بعظمته بعضاً من فخارنا : إننا فخورون بأن يكون فرنسياً .

إن القراء يتقمصونه بشغف ، ويظلون معه حتى قمة العذاب والألم ، ويصمدون وإياه أمام الوحـــدة والعرى أتراهم جديرين ؟ أترانا جديرين بذلك حقاً وحقيقة ؟

وتلك قضية أخرى ؛ أما الشىء المهم الذى يعتد به هو أن الضحية تعمل على تحررنا إذ تقودنا إلى أن نـكتشف أنفسنا كما اكتشفت هى نفسها ، إننا فى مقدورنا أن نتحمل كل شىء . . ولزاماً علينا أن نتحمل .

إننا نذهل وتدور رؤوسنا عندما نطل على هذه الهوة .. هوة الحيوانية.

ولـكن يكفى أن يطالبنا رجل صارم عنيد يضطلع بمهمة الإنسان لينقذنا مما أصابنا من دوار .

إن « الاستجواب » لم يكن بكل بساطة إلا جريمة خسيسة بشعة ارتـكبها جناة والغون فى الإثم ، ضد بشر آخرين ، وباستطاعة سواهم ومن واجبهم أن يقضوا عليها .

إن انعدام الإنسانية لايوجد فى أى مكان ، إلا فى ظل الـكابوس الجاثم على الصدور الذى يتولد من الخوف .

والحق أن شجاعة ضحية واحدة وهدوءها كانت السبيل إلى صحوتنا لنسكتشف عن حقيقتنا .

إن « أليج » يستل التعذيب من الليل الذى يواريه . فلنقترب لننظر إليه فى وضح النهار .

فما هؤلاء الجلادون أولا ؟

أهم ساديون ؟ أم هم ملائـكة أطهار قد تملـكهم الغضب ؟

أم هم سادة الحروب ذوو الأهواء الراعدة ؟

إذا صدقناهم وآمنا بما قالوا فهم خليط من كل أولئك !

ولـكن الواقع أن « أليج » لا يصدقهم .

إن ما نستخلصه من الأحاديث التى ينقلها إلينا أنهم يودون أن يقنعوا أنفسهم ويقنعوا الضحية بجبروتهم وقدرتهم على الظلم . فهم أحياناً بشر أعلون يضعون ناساً تحت رحمتهم ، وهم أحياناً أخرى رجال عتاة أقوياء وكل إليهم أمر ترويض أقسى البهم وأضراها توحشاً ، وأكثرها تراخياً واستسلاماً ، البهيمية الإنسانية .

والمعلوم أنهم لاينظرون إليها من قرب :

فالمهم عندهم أن يشعروا السجين بأنه ليس من جنسهم : ولذلك يجردونه من ثيابه ويربطونه بشدة ويهرأون جسده . ويمر به جنود جيئة وذهوباً يصبون عليه اللعنات ويرمونه بأقذع السباب ويتوعدونه بالعذاب الأليم المقيم .

ولـكن أليج المرتجف من البرد القارس الموثوق إلى خشبة ماتزال

سوداء لزجة من آثار قئ قديم يعيد هذه المساخر والمآتم الى حقيقتها التى تستوجب الرثاء .

انها مسرحيات يقوم بأدوارها ممثلون حتى فأصابتهم الفاشية الجامحة مسرحية . .

وهذا القسم الذى أقسموه بأن يقضوا على الجمهورية مسرحية أخرى..

وكلمات « ضابط الجنرال م » التى تنتهى بقوله ( لم يبق لكم الا أن تنتحروا ) هى مسرحية أيضاً .

انها مساخر فجة ، يعاد تمثيلها كل ليلة بلا قناع أمام كل سجين ، ولئن توقفت فترة ما فلضيق الوقت : ذلك أن هؤلاء الفعلة المرعبين مثقلون بالأعباء ، وهم مرهقون لأن الساجين يصطفون واقفين بالقرب من خشبة التعذيب ، ولابد من وثقهم بالحبال وفك قيدهم ومرافقة الضحايا من غرفة تعذيب الى أخرى .

ومن ينظر بعين أليج الى هذه الخلية القذرة ، يدرك أن الجلادين مرهقون بالعمل كل الإرهاق .

وقد يحدث أن يصطنعوا الهدوء وأن يتعاطوا الخمر . وقد تراخوا فوق جسد معذب، ثم تراهم ينتفضون ، ويهبون واقفين على أقدامهم، ثم يركضون على غير هدى وكأنما أصابهم مس من الشيطان وينطلق من أفواههم أقذع السباب ثم يصرخون غضباً ، انهم عصبيون من الطراز الأول ، يقبضون على ضحايا كثيرين ، واعتقادهم الجازم أنهم سيعترفون لهم من الركلة الأولى وهؤلاء السجانون على جانب من الخبث والجنون لفرط ما يستبد بهم من الغضب وهذا مؤكد ، ولكنهم ليسوا سذجين . انهم فى عجلة عاجلة ، وهذا ما ينقذهم حقاً من الجنون .

إن كلا منهم يقف على قدميه متماسكا من جراء السرعة المكتسبة ، فعليه أن يجرى باستمرار أو يخور غير أنهم يحبون العمل المتقن . إنهم عند اللزوم يدفعهم الحرص على تنفيذ الأوامر وإرضاء الضمير المهنى إلى درجة ارتكاب جريمة القتل .

وهذا ما يثير ويحز فى النفس فى قصة أليج . إن وراء هؤلاء السفاحين الجناة أو المضحكين عتوا أو قساوة تتجاوزهم وتتجاوز رؤساءهم أنفسهم.

ولقد كان من الممكن أن يكون حظنا كبيراً لو كانت هذه الجرائم يرتكبها حفنة من الحانقين الحاقدين ولكن الحقيقة هى أن التعذيب يخلق الجلادين .

وبعد هذا كله ، فإن هؤلاء الجنود لم يكونوا قد انخرطوا بعد فى فرقة الصفوة المختارة التى تقوم على تعذيب العدو المهزوم . ويصف لنا أليج فى بضعة أسطر أولئك الذين خبرهم عن يقين ، وهذا يكفى لتسجيل مراحل التغير .

هناك الجلادون الأصغر سناً العاجزون الذين يتمتمون باضطراب وجزع « هذا فظيع » عندما يضىء مصباحهم الكهربى أحد المسجونين ثم إن هناك معاونى الجلادين الذين لم يشتركوا بعد فى العمل ، وهم يمسكون بالمساجين ويدفعونهم فى عنف وقسوة . . وهناك من ينتظر إسناد هذا العمل إليه إنهم جميعاً قد غمرتهم الدوامة ، ولا معاذير لهم على الإطلاق وهناك ذلك الأشقر من المنطقة الشمالية « ذو الوجه . السمح الحلو الذى يستطيع أن يتحدث عن جلسات التعذيب أخضع لها اليج كما لو كان يتحدث عن مباراة شائقة يذكرها فى نشوة وعذوبة وفى غير مشقة : كما يفعل بالنسبة

لبطل من « راكبي الدراجات . »

ولقد رآه « اليج » بعد أيام من سجنه يقتل على السلم أحد المسلمين ، ووجهه يغلي بالحقد والكراهية .

وهناك الذين يتسلون برؤية الانتفاضات التي تعرو معذباً بالكهرباء ، ولكنهم لا يحتملون سماع صراخه وأنينه .

وهناك أخيراً المجانين الذين يطوفون ويدورون كورقة ميتة فى دوار فورانهم وعنفهم .

وليس فى هؤلاء جميعاً من هو موجود بذاته . وليس فيهم من سيبقى كما هو : لأنهم يمثلون لحظات تحول لا مفر منه .

فهناك فرق واحد بين أفضلهم وأدناهم فأولئك « زرق » وهؤلاء قدامى . وسينتهى الأمر بهم جميعاً إلى الرحيل ، وإذا استمرت الحرب فسيخلفهم آخرون ؛ شقر من الشمال أو سمر قصار من الجنوب ، يقومون بمهام التعذيب ويعتادون العنف نفسه وتتملكهم العصبية ذاتها .

وفى هذه القضية لايعول على الأفراد : فإن هناك حقداً وضيعاً . حقداً موغلا فى الإنسان ينقض فى وقت واحد على الجلادين وعلى الضحايافينحط بهم معاً ويحط بعضهم بسبب بعض . وليس العذاب إلا صورة هذا الحقد وقد اندرج فى نظام وخلق لنفسه سبله الخاصة .

وحين يثار هذا الوضع فى المجلس الوطنى . تثور الضجة ويكثر الصخب

والضجيج ، ويعلو نباح بعض الأعضاء: « إنكم تهينون الجيش ! » وينبغي أن نسأل هذه الجراء النابحة مرة أولى وهى الأخيرة .

« ما دخل الجيش هنا » ؟ إن من المؤكد أن التعذيب يقوم أيضاً فى الجيش كما يقوم بين المدنيين وإن لجنة الوقاية لم تخف منا ذلك فى تقرير لها هزيل ، وبعد ذلك : « أهو الجيش » الذى يعذب .

إنها حماقة ! أيظنون أن المدنيين يجهلون الوسائل الصالحة ؟ إذا لم تكن القضية إلا هذا فلنمنح شرطة الجزائر ثقتنا . ثم إذا كانت هناك حاجة إلى التصريح باسم رأس عصابة الجلادين فلقد سماه المجلس الوطنى كله ، فليس هو الجنرال « س » كما أنه ليس الجنرال « ا » ولا الجنرال « م » الذى ذكره أليج : بل هو السيد لاكوست صاحب السلطات المطلقة فكل شيء يتم بعد مشورته وبإملائه سواء فى « بون » أو فى « وهران » : أن جميع الذين سقطوا تحت وطأة الألم وويل العذاب فى مبنى « البيار » أو فى مقصورة «س» إنما قضوا نحبهم بإرادته ، ولست أنا الذى يقول ذلك : إنهم النواب والحكومة .

والواقع أن القرح يتسع . فهو قد جاوز البحر ، بل إننا نقول فى غير تردد إن الاستجواب يجرى فى بعض السجون المدنية فى فرنسا ذاتها . ولا أدرى إذا كانت هذه الشائعة حقيقة ولكن لابد أن انتشارها قد أثار السلطات العامة ، بدليل أن النائب العام ، فى قضية ابن صدوق ، قد سأل المتهم عما إذا كان قد عذب ، وقد كان الجواب بالطبع مصروفاً من قبل لا إن التعذيب ليس مدنياً أو عسكرياً ولا فرنسيا على وجه التخصيص ، إنه مرض يسود العصر كله ، فقد عرف الشرق والغرب جلادين . فلم يمض طويل وقت على تعذيب « فاركاس » للمجرين ، ولا يخفى البولونيون

لن الشرطة عندهم كانت تلجأ قبل بوزنان إلى الاستجواب . أما ما كان يحدث في الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين فإن تقرير خروشوف هو وحده آية على ذلك . . . واليوم أتى دور قبرص والجزائر .

والحقيقة أن هتلر لم يكن إلا رائداً من رواد هذا العصر .

هذا التعذيب الذي يتوارى بميوعة أحيانا ولكنه يطبق بانتظام وراء ستار من الديمقراطية يمكن تعريفه بأنه أداة نصف سرية . فهل تتوحد أسبابه في كل مكان ؟ كلا ، بلاشك ولكنه يقابل في كل مكان بالنفور والاشمئزاز . والحق أنه لا أهمية لذلك ، فليس لنا أن نحكم على العصر ولنكتف بأن ننظف أمام بابنا ، ولنحاول أن نتفهم ما الذي أحاط بنا ، نحن الفرنسيين .

لكم تعرفون مايذكر أحياناً من صور التبرير حتى لايدان الجلادون ، فهم يرددون أنه لابد من تعذيب بعض الناس لكي يدلوا باعترافاتهم التي قد تحفظ مئات الأرواح . وهذا نفاق لا يعوزه دليل . فإن «اليج» لم يكن إرهابيا ، وكذلك « أودين » . فهو معتقل بحجة أنه يعمل على الإخلال بأمن الدولة ، ولإعادة تشكيل جمعية منحلة .

أفمن أجل المحافظة على الأرواح البشرية أحرقوا ثدييه ، وشعر عضوه التناسلي ؟ .

لا : لقد أرادوا أن ينتزعوا منه عنوان زميله الذي آواه . ولو تكلم لزجوا بشيوعي آخر خلف القضبان الحديدية :

هذا كل مافي الأمر .

ثم إنهم يعتقلون كل من يصادفهم ... فكل مسلم تعرض للاستجواب ، فمنهم من يقدم شهادة كاذبة أو يتهم نفسه سلفا بجريمة ما تخلصا من العذاب .

أما أولئك الذين يستطيعون أن يتكلموا ، فالمعروف أنهم يصمتون كلهم أو جلهم فلا « أودين » ولا « أليج » ولا « جروج » قد فتحوا أفواههم .

ولا شك أن جلادى «البيار» أوسع معرفة منا فى هذا الصدد .

وقد قال أحدهم بعد الاستجواب الأول «لااليج» .

« لقد كسب الجولة الأولى على كل حال ليتيح لرفاقه الوقت الكافى للتراجع » .

وقال ضابط بعد بضعة أيام :

« لقد استقر فى رؤوسهم منذ عشر سنوات ، أو خمس عشر سنة ، إنهم إذا قبض عليهم ، فيجب ألا يقولوا شيئاً : وليس هناك من وسيلة لاقتلاع هذا التصميم من رؤوسهم» .

لعله كان يعنى الشيوعيين : ولكن أتراهم يظنون أن مناضلا فى جيش التحرير الوطنى هو من غير هذه الطينة ؟ .

إن أعمال القسوة هذه لا تعود إلا بنتائج سيئة ، ولقد اقتنع الألمان أنفسهم بذلك عام ١٩٤٤ . إنها تزهق الأرواح البشرية ولا تعمل على حمايتها .

ومع ذلك فإن الحجة ليست كلها خطأ : وسيان هذا أم ذاك فانها تفضح

رسالة التعذيب : إن الاستجواب الذى هو أداة سرية أو نصف سرية ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسرية المقاومة .

وفى الجزائر، انتشر جيشنا فى كل بقعة فيها : فنحن نملك الجنود والسلاح والمال ، أما الثوار فلا شىء يملكونه إلا الثقه وتأييد الشعب لهم ، ولقد عرفنا خبر الاغتيالات التى تمور بها المدن ، والكمائن التى تقام فى الريف .

وجبهة التحرير الوطنية لم تحدد نشاطها وإنما هى تفعل مافى استطاعتها ومقدورها . إن نسبة قواها إذا ما قورنت بقواتنا فإننا نعذرها عندما تقوم بهجماتها الفجائية . فخطتها أن لا ترى ولا تنتظر ولا تمس ، فشعارها « إضرب واهرب » حتى لا يقضى عليها . ومن هنا كان ضيقنا : إننا نجالد خصما سريا .

فهذه قنبلة تنفجر فى الشارع ، وهذه رصاصة تنطلق فتجرح جندياً من جنودنا فى الطريق ، فإذا سارعنا إليه لم نجد أحداً إلى جواره وإن كان لابد أن يعثر على مسلحين لم يروا شيئاً .

إن الحرب الشعبية ، حرب الفقراء ضد الأغنياء . تتميز بالصلة الوثيقة التى تشد بين الوحدات الثائرة وبين الشعب ، وفى الوقت نفسه يصبح هذا الفيض من البؤساء بالنسبة للجيش النظامى والسلطات المدنية ، العدداليومى الذى لا يعد ، ويقض مضجع فرق الاحتلال من صمت أخرس صنع يديها فتدرك أن هنالك إرادة للصمت لا يمكن السيطرة عليها كسريعم كل مكان .

وكذلك لن يستمر الأغنياء فى إحساسهم بانهم مطاردون وسط فقراء صامتين ، وتجد قوى الأمن نفسها مرتبكة ، بل عاجزةعن مواجهة العمليات

الحربية الصغيرة إلا بالتطهير وحملات الانتقام ، ومواجهة الإرهاب بالإرهاب على أن هناك شيئاً خفياً : يجب دائماً الاستجواب والتحرى ، وانتزاع الكلام فى كل مكان ومن أى إنسان .

إن التعذيب غضب لاطائل تحته أوجده الخوف : يراد انتزاع سر الجميع من خاق يحور بالصراخ وينزف الدم . وأنه لعنف لا مبرر له . وسواء أجبرت الضحية على الكلام وانتزع منها الصمت أو لقيت مصرعها بين جحيم العذاب فان السر الذى لا حصر لعدده موجود فى مكان آخر . . . إنه بعيد عن متناولهم . .

وهنا ينقلب الجلاد إلى سيزيف : فإن عليه إذا طبق الاستجواب أن يبدأ دائماً من جديد .

ولكن هذا الصمت وهذا الخوف وهذه الأخطار التى لا ترى قط ، وهى ماثلة لا تريم ، لا يمكن أن تفسر علة خراوة الجلادين وإرادتهم فى أن يسوقوا ضحاياهم إلى الضعة ومن ثم إلى الحقد البشرى إذا استولى عليهم على غير رضاهم .

إن القاعدة هى أن يتقاتل الناس ، يتقاتلون من أجل مصالح جماعية أو فردية .

أما فى التعذيب ، هذه المباراة الغريبة ، فإنما يقيس الجلاد فيها نفسه بالضحية من أجل صفة الإنسان وكل شىء يحدث كما لو أنهما لا ينتسبان إلى الجنس البشرى .

إن هدف الاستجواب لا يقتصر على إجبار الضحية على الكلام وعلى

الخيانة : بل على الضحية أن تشير إلى نفسها بالصراخ والاستكانة على أنها بهيمة بشرية ، فى عيون الجميـــع وفى عينيها بالذات .

يجب على خيانتها أن تحطمها وتخلص المجتمع منها أبد الدهر .

وإن من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط اجباره على الـكلام ، وإنمـا هو قد أدين إلى الأبد بأنه أدنى درجة من الإنسان .

ولا شك فى أن تعميم هذا الشرط سمة من سمات هـذا العصر . ذلك أن الانسان بحاجة إلى أن يصنع ، إن إرادته فى أن يكون حرا لم تـكن فى أى وقت أقوى منها الآن ولا أعمق وعيا ولذلك الاضطهاد لم يكن أعنف ولا أفتك سلاحا مما هو حادث اليوم .

والفارقات فى الجزائر غير قابلة للتخفيف : فكلا الفريقين المتصارعين يطالب بطرد الآخر طرداً كلياً .

ولقد اغتصبنا من المسلمين كل شىء وحرمناهم كل شىء حتى لغتهم .

وقد أوضح « ميمى » أن الاستعمار يتحقق بالقضاء على الوطنيين ، لأنهم لم يعودوا يملـكون شيئاً ، فقد صفيت حضارتهم ؟ وكذلك حرمناهم حضـارتنا .

لقد طلبوا الانضمام فقلنا لهم لا ونحن نتساءل :

بأية معجزة ترانا نستبق الاستغلال الاستعمارى إذا كان المستعمرون يتمتعون بالحقوق نفسها التى يتمتع بها المستعمرون ؟ .

إن النظام المتبع كان يدفع هؤلاء المساكين البائسين الذين أضناهم الجوع والحرمان إلى تخوم الصحراء ·

وهناك انخفض مستوى معيشتهم بسبب كثرة المواليد سنة فى إثر سنة وجدب الأرض وأخير حينما اندلعت ثورتهم تخلصا من هـذا البؤس الذى غشيهم واستبدبهم قلنا عليهم هؤلاء ليسوا بشراً فإما أن يلفظوا أنفاسهم أو يؤكدوا إنسانيتهم فإذا هم يستغنون عن ثقافتنا ويتخلون عن قيمنا وتقدمنا المزعوم . وتساوى عندهم أن يطالبوا بصفة الإنسان وأن يرفضوا الجنسية الفرنسية .

ولم يقتصر هـذا التمرد على تحدى سلطان المستعمرين ، وإنما راحوا يكافحون من أجل وجودهم المهدد بالضياع .

إن هنـــاك حقيقتين متكاملتين لا ينفصلان فى نظر معظم الاوربيين المستوطنين فى الجزائر ·

ان المستعمرين هم ذوو الحق المطلق « الالهى » أما السكان الاصليون فهم أقل مستوى من البشر وتلك هى ترجمة اسطورية لواقع حقيقى ، مادام ثراء الأولين يقوم على بؤس الآخرين وهـكذا يفرض الاستعمار أن يكون المستغل تبعاً للمستغل .

ثم إن هذه التبعية على صعيد آخر هى فى صميم النزعة العنصرية ، وذلك هو تناقضها العميق ، وشرها المرير

ان الأوربى الجزائرى يرى أن صفة كونه إنساناً يعنى قبل كل شىء تفوقه العنصرى على المسلم .

وإذا اعتبر المسلم نفسه كإنسان يقف على قدم المساواة مع المستعمر ؛

ترى ماذا يكون الموقف ؟ إن المستعمر يشعر أنه قد طعن فى كيانه وحط من قدره .

وقد يفكر أحياناً فى إبادة هؤلاء ولكن ما عساه يصنع من غير أيد عاملة رخيصة من السكان الأصليين ؟ وإذا كان المسلمون حقا بشراً مثلهم، فقد ضاع كل شئ ولم يبق هناك حاجة حتى إلى إبادتهم .

ولكن هناك حلا آخر إذا كان الأمر يتطلب السرعة .

إنهم يجب أن يسقوا الهوان وتفرض عليهم الذلة والمسكنة . وكذلك يجب عليهم أن يروضوا ويقاوموا فى عنف ، فالجزائر لا تتسع لجنسين بشريين ، وإنما هى تتسع لواحد منهما فحسب .

إننى لا أقول إن الأوربيين هم صانعو هذا العذاب ولا محرضو السلطات المدنية والعسكرية على اقترافه . بل على العكس .

لقد فرض التعذيب نفسه تلقائياً حتى أصبح أمراً مألوفاً عاديا . غير أن الإحن التى تتمثل فيه إنما تعبر عن العنصرية ، لأنه إنما يراد به القضاء على الإنسان نفسه بكل قيمه الإنسانية من أمانة وإرادة وشجاعة . القيم التى يطالب بها المستعمر ..

ولكن إذا استخف الغضب بالأوربى إلى درجة أن يحتقر صورته نفسها فذلك لأن عربياً قد عكس هذه الصورة .

وهكذا يبدو من هذا الزوج الذى لا يريد انفصالا ، المستعمر والمستعمر ، الجلاد والضحية ، أن الثانى ليس إلا تبعاً للأول .

إن الذى لا شك فيه هو أن الجلادين ليسوا مستعمرين، ولا المستعمرون جلادين .

إن هؤلاء فى أغلب الظن شبان أتوا من فرنسا حيث عاشوا هناك من غير أن يهتموا بالمسألة الجزائرية ولكن الحقد المشبوب هناك أوجد مجالا للقوى المغناطيسية ، يجذبهم فى دائرة استعباده .

إن هـــذا كله إنما يوحى به مافى قضية « اليج » من بصيرة هادئة واعية . فإذا لم يكن يحمل شيئاً آخر فينبغى أن نحفظ له عرفاناً عميقاً بالجميل ، غير أنه قد أتى بأ كثر من ذلك فهو حين أخاف جلاديه ، إنما انتصر لإنسانية الضحايا والمستعمرين ضد العنف المحموم الذى ينطوى عليه بعض العسكريين وضد عنصرية المستعمرين .

وأرجو ألا تعنى كلمة « ضحايا » هـــذه نوعا لا أفهمه من الإنسانية الباكية :

«إن اليج» وسط هؤلاء القواد الشبان الصغار الفخورين بفتوتهم وقوتهم وعددهم هو الوحيد الصامد الوحيد القوى حقاً . وبوسعنا نحن أن نقول إنه دفع أغلى ثمن ليؤكد حقاً معنوياً ، من أجل أن يظل إنساناً بين البشر .

ولكنه لم يفكر فى ذلك .

ولهذا فإننا نقف مبهورين أمام هذه الكلمات التى رددها فى نهاية أحد فصول كتابه :

( ووجدت نفسى تغمرنى السعادة وأزهو فخورا لأننى لم أنحن ولم أتخاذل ولقد كنت على يقين من أننى سأقاوم إذا عاودوا الكرة . وسأكافح حتى النهاية ، وإننى لن أقدم على الانتحار حتى لايبلغوا أملهم المنشود ، وينهوا مهمتهم العسيرة ) أجل انه بطل ذو قلب حديد ، استطاع أن يلقى الرعب فى أفئدة الشياطين الحانقة الهادرة .

إننا نلمس فى أحاديثهم سورة الغضب وكأنما يحاولون أن يقلبوا العالم رأساً على عقب إذا ما انتصرت الضحية .. فهم يعلنون أسفهم على زوال السيطرة وحقوق السيادة ، وأخيرا تجمد الأجنحة الملائكية أو الشيطانية ويتساءل كل منهم ( أتراني أستطيع المجالدة إذا عذبوني ؟ )

ذلك أن نظاما من القيم قد حل محل النظام الأول ساعة الفوز والانتصار .

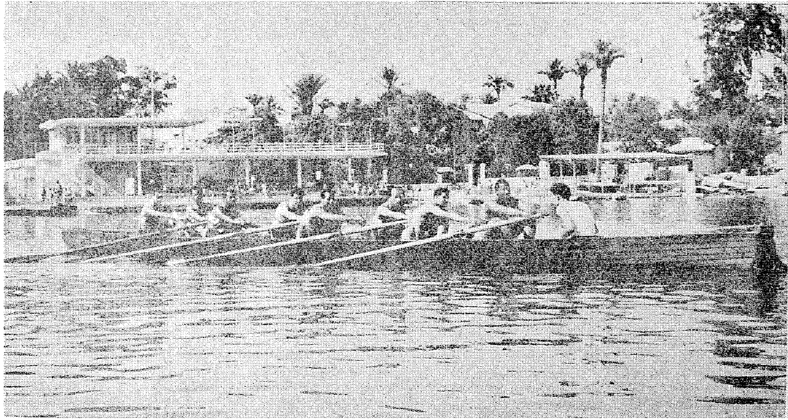
ولا حاجة إلى أكثر من دقائق ليصاب الجلادون أنفسهم بالدوار ، والحقيقة أن رءوسهم يانعة القطوف ، وأن العمل أكبر منهم ، ثم إنهم يستهولون مايرتكبونه من جرائم ولا يكادون يصدقون مافعلوه .

وبعد فما جدوى اقلاق ضمير الجلادين ؟ إذا فكر أحدهم فى أن يقول شيئاً بادره الآخرون بقولهم :

إذا فقدنا إنساناً ، فاننا نجد عشرة بدلا منه .

إن شهادة « أليج » تبدد أوهامنا : لا ، إنه لا يكفى أن ننزل العقاب ببعض الأفراد أو نعيد تربيتهم ، ولن نستطيع وصف الحرب الجزائرية بأنها حرب تقوم على مثل إنسانية لأنها قامت أساساً على التعـــذيب . . هذا التعذيب الذى أملته الظروف وشددت نكيره النزعات العنصرية . .

وإذا كنا نريد أن نوقف هذه الأعمال الإجرامية التى تنفر منها الإنسانية ، وأن ننتشل فرنسا من وصمة العار ، وننقذ الجزائريين من هذا العذاب الوحشى ، فليس هناك إلا سبيل واحد هو أن تفتح باب المفاوضات على مصراعيه وندخل إلى السلام من أوسع أبوابه ...



نادى التجديف بالاسماعيلية

# تشجيع هيئة قناة السويس للمشروعات
## السياحية بمنطقة القناة

أدلى المهندس محمود يونس ، رئيس هيئة قناة السويس لجريدة الأخبار بحديث تناول فيه موضوع جزيرة البلاح التى تقع وسط القناة بين مدينتى بور سعيد والاسماعيلية وإمكان جعلها مركزاً سياحيا يستطاع استغلاله من الناحيتين السياحية والاقتصادية فى المنطقة .

فمن المعروف أن قافلة السفن القادمة من الشمال تتحرك من بورسعيد فى اتجاه الاسماعيلية فى الساعة السابعة صباحا فتبلغ جزيرة البلاح فى حوالى الساعة الثانية عشر ظهراً وكى تستطيع القافلة القادمة من الجنوب فى اتجاه بور سعيد مواصلة سيرها عبر منطقة البلاح ، حيث لا تتسع القناة لمرور القافلتين فى وقت واحد ، ترسو سفن القافلة الأولى ، ويتراوح عددها بين ١٥ و٢٠ سفينة ، فى محاذاة الشاطىء الغربى للجزيرة طيلة الفترة الكافية لمرور القافلة الأخرى

ومن هنا نشأت فكرة استصلاح جزيرة البلاح على أسس سياحية وذلك بإقامة مطعم شرقى فاخر بجانب مقاصف وملاهى ومحلات لعرض وبيع السلع المحلية حيث يستطيع عابرو القناة قضاء فترة توقف القافلة عند الجزيرة فيها .

وقد أعرب المهندس محمود يونس عن استعداد الهيئة للتعاون مع الجهات المعنية فى سبيل تحقيق مثل هذا المشروع وغيره من المشروعات السياحية التى تعود بالفائدة على المنطقة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية .

# اشتراكية الإسلام

تأليف

الدكتور مصطفى السباعي

## اخترنا للطالب

مع الباعة فى كل مكان

# فى ذكرى البطل
## جلال الدين دسوقى

بقـــلم

على الجمبلاطى

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦٠ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥